حوادث
١٨٦٠

فصل

في مذابح سنة ١٨٦٠

✻ حادثة بيت مري الاولى ✻

لما تهيأت اسباب الحرب عَلَى ما ذكرنا في الفصل السابق واستعدت الافكار للقتال اذ لم يبقَ بدٌّ منهُ كثر الاعتداء والقتل في انحاء الجبل وكثر تشكي النصارى إلَى القائمقام وإلَى الوالي التركي في شان تلك الحوادث ولم تهتم الحكومة لايقاف سير تلك الحركة الهائلة فاصاب معظم الضرر النصارى والامراء الشهابيين المسلمين الذين كانوا حكامًا عَلَى وادي التيم . وحدث ان درزيًّا قتل في انحاء حاصبيًا واتهم اهلُ القتيل اعوانَ الامير الشهابي بقتلهِ وطلبوا مالاً طائلاً من الامير عَلَى سبيل الدية فانكر الامير طلبهم فاغار الدروز على حاشيتهِ في نواحي الحولة وسلبوها واكثروا من التعدي عَلَى اهل القرى فرأى الامير — وكان الامير سعد الدين شهاب هو الحاكم عَلَى حاصبيا يومئذٍ — ان سلطتهُ ضاعت والتجأ من اجل ذلك إلَى دمشق . وكثر بعد ذلك ربط الطرق في كل انحاء لبنان فقتل النصارى

رجلاً من جماعة سعيد بك جنبلاط وقتل الدروز نحو خمسة عشر رجلاً من النصارى في اقل من شهرين حتى عمّ الاضطراب وصارت البلاد الى حال يشبه الفوضى حتى اذا كان يوم ٣٠ اغسطس من سنة ١٨٥٩ حدثت حادثة بيت مري الاولى وهي اول حوادث هذه الحروب الهائلة وكانت مقدمةً لما سيجيء من الاهوال

واما بيت مري فقرية من قرى المتن في جبل لبنان على مسافة ٦ اميال من بيروت إلَى جهة الشرق وسكانها نصارى ودروز. ففي اليوم الذي ذكرناهُ تشاجر درزي ومسيحي من اولاد القرية وكأن الولد الدرزي قوي على النصراني واوسعهُ ضرباً فجاء ابوهُ وبعض اقاربهِ إلَى ابي الدرزي ووبخوهُ على ما بدا من ابنهِ ولما عادوا عنهُ دار الرجل على ابناء طائفتهِ في القرية يحرّضهم على مقاتلة النصارى وارسل اناساً إلَى الدروز في القرى المجاورة لقريتهِ فما صدق هؤلاء ان سمعوا النداء حتى تجمهروا وهجموا على النصارى في قرية بيت مري مع دروزها فهبّ النصارى لمقاتلتهم واظهروا بسالةً فوق المعتاد وطردوهم على كثرة عددهم. ثم وصلت نجدات اخرى الى الدروز فاعادوا الكرة على القرية وعادوا عنها خاسرين بعد ان قتل من الجانبين عددٌ كبير وكان قتلى الدروز يزيدون عن قتلى النصارى ٢٨ قتيلاً واذ لم يكن من منصف اتسعت دائرة الشرّ والعدوان فذهب المدعو يوسف عبد الملك وهو احد مشايخ الدروز برجالهِ وسلب ثلاث قرى للنصارى مجاورة لبيت مري واحرقها عن آخرها غير مبالٍ بشرّ ما فعل. ولما علم خورشيد باشا والي بيروت حينئذٍ بما جرى ورأى بان هذه الاعمال المنكرة ستأول

إلى اضرام نار الثورة الاهليَّة في جميع انحاء لبنان وان قناصل الدول العظمى في بيروت تلاحظ كل هذه الحركات ذهب بنفسهِ لتلك الجهة مظهراً رغبة شديدة في اخماد الشرّ وايجاد الراحة وانصاف المظلوم من ظالمهِ فاوقف سفرهُ الحركات العدائيَّة الجارية وسكن الامور واوجد الامن الاَّ انهُ امتنع عن مقاصة المذنبين وقصر عن تحصيل حقوق النصارى فكان سفرهُ وسيلة لازدياد جراءة الدروز واضمارهم متابعة الشرّ والعداء . ولما رجع الى بيروت عاد الدروز لاستئناف الشرّ بعد ان علموا بان لارادع لهم ولا مسئوليَّة عليهم فاخذوا ينكلون بالنصارى اينما صادفوهم طمعاً باموالهم ومقتنياتهم وشفاءً لداء الحقد المزمن الكامن في صدورهم فقطعوا الطرق وعاثوا وسلبوا ونهبوا وقتلوا غير مبالين بالعواقب . وقد اوجبت اعمال الدروز هذه على النصارى ان يقابلوهم بمثلها دفاعاً عن انفسهم وصيانةً لحقوقهم وهكذا قتلوا هم ايضاً بعضاً من الدروز فكان الويل كل يوم يزداد عن امسهِ حتى باتت تلك الجهة مرسحاً للتعديات المستمرة ولسوء الحظ لم تهتم حكومة بيروت بالامر اهتماماً صادراً عن نيَّة سليمة . فان خورشيد باشا المار ذكرهُ لما رأى امتداد الثورة بعد رجوعهِ المرة الاولى وانها وصلت الى قرية الحازميَّة الَّتي تبعد ساعة عن بيروت واخذت تمتدُّ منها للجهات المجاورة اظهر لقناصل الدول العظمى في بيروت تصميمهُ على الذهاب الى تلك الجهة لاخماد الفتنة وتسكين الثورة ومجازاة كلٍّ بما يستحق وسافر مصحوباً ببعض العساكر . الاَّ انهُ عوضاً على ان يدخل الامور من ابوابها ويجري التحقيقات اللازمة ويقاص من يستحق القصاص وينصف

المظلوم من ظالمهِ اتى ما اتاهُ في المرة الاولى فلم تكن نتيجة سفرهِ الاَّ ان سكنت الامور وقتيًّا والفضل بسكونها للطبيعة حيث دخل فصل الشتاء ببردهِ وثلوجهِ فبردت معهُ حركات العدوان

✻ الاستعداد للحرب ✻

وقد تشجع النصارى وتقوَّت قلوبهم من بعد هذه المعركة لانهم حسبوا انهُ اذا كان نصارى بيت مري على قلة عددهم وعدم اشتهارهم بالبسالة قدروا على طرد كل اولئك الدروز والانتصار عليهم فلابدَّ ان تتمَّ العظائم على يد اهل زحلة ودير القمر وحاصبيًّا وجزين وغيرها من القرى المشهورة بكثرة النصارى فيها و بسالتهم. وزيادة عَلَى ذلك ان كسروان من اولهِ إِلَى آخرهِ كان آهلاً بالموارنة وهم الذين كان قسسهم يحرّضون عَلَى القتال و يعدون النصارى بالنصر. ثم ان نهوض الدروز لمحاصرة بيت مري والتظاهر بالعداء والمناداة بالحرب لغير علةٍ توجب هذه الامور ومجيء اهل القرى المجاورة لاعانة اخوانهم في بيت مري في اقل من نصف نهار اظهر للنصارى ان الدروز كانوا متواطئين عَلَى الايقاع بهم مستعدين للهجوم عليهم حالما تجيء الفرصة المناسبة. ولما هدأت الاحوال بعد تلك المعركة ولم تجاز الحكومة الدروز الذين بدأوا بالعدوان ولا ارجعت للنصارى الذين احرقت قراهم شيئًا من الذين اضاعوهُ مع كثرة الحاحهم في طلبهِ ظهر للملأ ان الحكومة ما اوقفت سير القتال الاَّ لانها تنوي تأجيلهُ إِلَى وقت آخر لا لانها كانت تحب السلام وعرف القناصل وقتئذٍ ان الحكومة تقدر عَلَى قمع

ثورة الثائرين ورد اهل لبنان عن بكرة ابيهم إلَى طاعتها والرضوخ لاوامرها اذا هي استعملت الحزم واخلصت في العمل ومن هٰذا يظهر ان الدروز ما قاموا في السنة التالية الاَّ بامرها وسوف يتضح ذلك بأَجلى بيان عند ذكر المذابح

وشرَك المسلمون في المدن عَلَى عادتهم يريدون الفتك بالنصارى بعد حادثة بيت مري واشتدَّ نفور الدروز من جيرانهم وكثرت خيلائهم . ومن غرائب الامور ان بعض مشايخ هذه الطائفة نزلوا إلَى مدينة بيروت في الشتاء وقضوا كل ذلك الفصل فيها ولم تسبق لهم عادة بذلك وكانوا في تلك المدة يجتمعون كل ليلة في بيت الوالي خورشيد باشا وغيره من الحكام ويتشاورون ويكتبون إلَى اهل طائفتهم الكتب الكثيرة فلم يبقَ ريب في انهم كانوا يتداولون مع الحكومة في طريقة قتل المسيحيين عن بكرة ابيهم في كل انحاء الشام . ولم يرجع هؤلاء المشايخ إلَى مواطنهم الاَّ في اوائل الربيع من سنة الاهوال اي سنة ١٨٦٠

وفي شهر ابريل من تلك السنة وردت عَلَى خورشيد باشا تعليمات من الاستانة لم يعلم الناس فحواها ولكن الخبر ملأَ بيروت في الحال بان السلطان قد اصدر فرمانًا باعدام النصارى وقتلهم عن آخرهم وارسل خورشيد باشا الكتب والرسل إلَى سعيد بك جنبلاط في المختارة عقيب وصول تلك التعليمات فحالما قراها سعيد بك ارسل رجاله يدورون عَلَى قرى لبنان وبدأَت جماهير الدروز تفد الى المختارة من ذلك اليوم فلم يبقَ ريب في ان تلك الكتابة الَّتي جاءت خورشيد باشا من

الاستانة كانت تصرح لهُ باعدام النصارى والعمل على استئصالهم من البلاد . ثم جعل اشقياء الدروز يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى فخاف هؤلاء المساكين على ارواحهم وهرب العدد الوافر من كل القرى الصغيرة الى جزين ودير القمر وزحلة حيث كانوا يأمنون على ارواحهم نظرًا لقوّة النصارى في تلك القرى . ثم قصد بعض الدروز دير عميق على مقربةٍ من دير القمر وقتلوا رئيسهُ وهو يصلي لربهِ ونهبوا ما فيهِ من الادوات الثمينة فاشتدّ غيظ النصارى وجعلوا يتأهبون للقتال في القرى الكبرى الّتي ذكرناها حتى ان اغنياءهم كانوا يجودون على فقرائهم بالمال و يعطونهم الاسلحة والذخائر استعدادًا للحرب ولكنهم لم يمدوا الى الدروز يدًا

معركة عين دارا

ولمّا لم يبقَ ريب في ان الدروز ينوون اعادة الكرة على النصارى تقدم اهل زحلة وعدتهم ثلثة آلاف بطلٍ على قرية للدروز اسمها عين دارا فقابلهم فيها ستمائة درزي من اهلها وحاربوهم فيها النهار بطولهِ وردوهم خاسرين مع انهم لم يزيدوا عن خمس النصارى في عدد الرجال . وتشجع الدروز بهذا الانتصار فهجموا على قرى كثيرة من المتن وهو الذي حدثت فيهِ معركة بيت مري الّتي مرّ ذكرها وقد رزئ هذا القسم من لبنان بالاهوال اكثر من غيرهِ واحرق الدروز فيهِ ستين قريةً للنصارى واعملوا السيف في اهلها ونهبوا كل ما وصلت اليهِ ايديهم فيها . وظهر من معركة عين دارا هذه ان الدروز يفوقون

النصارى في امور الحرب قدر ما يفوقهم النصارى في كثرة العدد فقد كان النصارى يسيرون بلا قائد ولا نظام وحدث في معركة عين دارا ان بعضهم كان يضرب النار عَلَى البعض الآخر والدروز يهاجمونهم عَلَى قواعد معلومة ويعملون بأَمر رئيس واحد في حين ان النصارى كانوا كلهم رؤوساً لا يخضع الواحد منهم لغيره وهٰذا هو السبب في فشلهم . ومن حسن حظ الدروز ان اكابرهم اشجع واعقل من قوّاد النصارى وهم اميل إِلَى الحرب ولهم كلمة نافذة في من دونهم من اهل طائفتهم واما النصارى فاكابرهم رؤَساء الدين او التجار الذين يخافون من اسم الحرب وان كانوا يحرّضون الناس عليها وليس بينهم واحد يصلح للقيادة والرئاسة واما عامة النصارى وعامة الدروز في جبل لبنان ففي درجة واحدة من البسالة

﴿ دروز حوران ﴾

ولما كان مشايخ الدروز يعلمون بمصير الامور وقد نووا بامر الحكومة قتل كل النصارى ورأَى سعيد بك جنبلاط ان قوة الدروز في لبنان لا تكفي لهذه الغاية اذا تأَخر عساكر الاتراك عن المساعدة اللازمة ارسل إِلَى زعيم الدروز في حوران وهو يومئذٍ اسماعيل الاطرش كتاباً يقول فيهِ ان النصارى قد فتكوا بالدروز وقاموا عليهم في كل بلدة فنكلوا بالرجال وسلبوا النساء ونهبوا الاموال وقتلوا العاجزين والاطفال وان طائفة الدروز صارت عَلَى وشك الانقراض وهي ترجو من اخواتها في حوران الاسراع إِلَى انقاذها من يد الاعداء . ثم انهُ

امر بحرق هٰذا الكتاب من اطرافهِ الاربعة علامة الخطر الشديد وبعث بهِ مع رجلٍ يعتمدهُ وافهمهُ ان يقول ما يوافق مضمون ذلك الكتاب حتى ينهض همة الدروز في حوران للمجيء واعانتهم عَلَى النصارى في الحال وقد أثر ذلك الكتاب التأثير المطلوب فان اسماعيل الاطرش قرأهُ عَلَى مسمعٍ من رجالهِ واعوانهِ فصاحوا بالويل والثبور ونادوا بالحرب وعظائم الامور واقسموا انهم لا يستريحون حتى يأخذوا لبني امتهم بالثار و يقلعوا من النصارى الآثار . ومن غريب الامر ان ثلثة آلاف بطل من ابطال الدروز اجتمعوا حول بيت اسماعيل الاطرش بعد وصول ذلك النبأ بيومين وحال اجتماعهم قاموا لنصرة اخوانهم في جبل لبنان وتقدموا ينشدون الاناشيد الحربيَّة

وقد جعلوا وجهتهم وادي التيم حتى يقتلوا اهلها

و يتقدموا منها عَلَى دير القمر وزحلة

وهٰذا بيان مذبحة حاصبيَّا

الَّتي قصدها هؤلاء

الرجال

فصل
في حاصبيًّا ومذابحها

نرى اتمامًا للفائدة ان نأتي عَلَى طرفٍ من وصف حاصبيًّا وتاريخها قبل التقدم الى ذكر المذبحة فنقول :

حاصبيًّا مدينة وادي التيم وهي واقعة عَلَى نحو ٤٦ ميلاً من شرقي دمشق في عرض ٢٥ َ ٣٣° شمالاً وطول ٤٠ َ ٣٥° شرقًا تقريبًا . وتاريخها غامض لا يعرف منهُ الاَّ القليل من يوم فتحها الامراء الشهابيون وكانَ هؤلاء الامراء يسكنون مدينة شهباء بحوران في القرن الثاني عشر بعد المسيح فلما شقَّ صلاح الدين الايوبي وزير مصر عصا الطاعة للسلطان نور الدين الخليفة بدمشق خاف الشهابيون ان تقع نكبات الحرب عليهم فجمع اميرهم منقذ سائر الامراء وكبار قومهِ واشار عليهم بالرحيل فرارًا من مطالب السلطان نور الدين وتخلصًا من محاربة صديقهم صلاح الدين . فأجابهُ الامراء والكبراء إِلَى ذلك ورحلوا بعيالهم ومواشيهم واموالهم حتى جاؤوا ونزلوا عَلَى جسر بنات يعقوب . فلما علم السلطان نور الدين برحيلهم بعث اليهم رسلاً يسألهم عن سبب رحيلهم ويحثهم عَلَى الرجوع إِلَى اوطانهم . فعاد الرسل واخبروهُ ان الشهابيين عقدوا النيَّة عَلَى الرحيل وعدم الاوبة إِلَى حوران فكتب إِلَى اميرهم منقذ رسالة حوت ارقَّ العبارات والطف المعاني ووعدهُ

انكم لئن عدتم الى وطنكم فاني لادفع عنكم كل ضير واغمركم بكل فضل وخير وحمّل الرسل الخلع السنيّة والهدايا الفاخرة وبعثهم بها إلى الشهابيين . فاجابهُ الامير منقذ اننا حيث كنّا فنحن عبيد شوكتكم نستظل بظل حمايتكم ولا نسير الاّ بأمركم غير انّا نستأذن جلالتكم بالرحيل من حوران فانها لا تقوم بمرعى انعامنا وقوت عيالنا . فاذن لهم السلطان نور الدين فعبروا الجسر وتوجهوا نحو وادي التيم وفي مقدمتهم اثنا عشر اميرًا والف فارس شاكو السلاح وكان عدد القبيلة نحو خمسة عشر الفًا فنزلوا في بيداء الظهر الاحمر

وكانت حاصبيًا يومئذٍ بيد الافرنج معزّزة بالحصون والابطال وكان الكونت اورا حاكمًا عليها فلما سمع بقدوم الشهابيين استنجد بقلعة الشقيف فانجدتهُ بفرقة من الجنود فضمها إلى حامية المدينة وخرج لمحاربتهم في مرج عيون . وقام العرب ايضًا لقتالهِ وصبروا عليهِ حتى عبر بجنودهِ نهر حاصبيًا وقد استخفوا بالعرب لقلة عددهم فحملوا عليهِ حملة واحدة وهو يصف جيشهُ للقتال فتقهقر مشاة الافرنج مذعورين وكان جل الاعتماد عليهم اذ كانت فرسانهم دونهم تحنكًا وانتظامًا فلما رأى هؤلاء ما كان من المشاة لم يخرجوا من مراكزهم . وفي اليوم التالي عبر احد الافرنج النهر وقصد العرب يطلب المبارزة فخرج الامير نجم ابن الامير منقذ لمبارزتهِ . ولما دار بينهما الكرُّ والفرُّ والطعن والضرب ابتدرهُ الافرنجي بضربة فاس فقطع رمحهُ نصفين . فلما رأى الامير نجم ذلك وعلم ان ضرب السيف لا يقطع في قرنهِ الغائص في الزرد والفولاذ وثب على متن جوادهِ وتعلق بهِ فسقطا كلاهما عَلَى

الارض يتصارعان. وكان الافرنجي مثقلاً بالسلاح والحديد ولكنهُ لم يبالِ بذلك لضخم هامتهِ وعظم قوتهِ. فلما شعر الامير نجم بذلك احتال عليهِ فاستلَّ خنجرهُ (خنجر الافرنجي) من منطقتهِ وضربهُ بهِ فقتلهُ. وكان العرب قد اجتمعوا خفيةً في زيتون المخاضة اثناء هذه المبارزة الَّتي جرت في سهل الخان حيث تقام اليوم السوق المعروفة بسوق الخان. فلما رأوا ما كان عبرت فرسانهم على جسر النهر وخاضت نياقهم مخاضتهُ. وكان العدو نازلاً في تلك النواحي فارسل عليهم سهامهُ كالمطر الوابل وقتل منهم خلقًا كثيرًا واجبر ركاب النياق عَلَى ان يقفوا للمدافعة. واما الفرسان وكانوا نحو الالف فصعد بهم الامراء في طريق العرضيَّة تحت السهام حتى احدقوا بأسوار حاصبيَّا فكوموا هناك الحجارة والاخشاب لتقيهم من النيران الَّتي يرميهم بها حامية المدينة من الحصون. فلما رأى الافرنج ذلك تفرَّقوا ايدي سبا وصعد الركب وعددهم الف وخمسمائة رجل حتى انضموا إِلَى الفرسان فسلموا النياق لمن يحرسها وانتظموا كالجند المشاة

وفي اليوم الثالث حاربوا العدو بالسهام حتى دنا الظلام فنضَّدوا الحطب على ابواب المدينة وتهددوا اهلها بحرقها ان ابوا التسليم. فخاف الكونت اورا سوء العاقبة وحسب ان قومهُ يمدونهُ بالرجال ويفرجون عنهُ الكرب بعد زمان قصير فسلمهم المدينة على ان كل افرنجي يسلمهم سلاحهُ ويبارح المدينة سالمًا واما هو فاصطفى خمسمائة بطل من قومهِ وحاصر بهم في قلعة المدينة (لعلها السراي) فشدَّد العرب عليهِ الحصار ونصبوا المنجنيق على ابواب القلعة واقاموا الحجارة الكبيرة في

ثلثة اماكن بجانب جدرانها حتى صارت على مساواة الحصون واستمرّوا في الحصار عشرة ايام واورا وقومهُ يأبون التسليم آملين ان يأتيهم المدد حتى فتح العرب القلعة عنوةً وقتلوا كل من كان فيها بحد السيف سنة ١١٧١ للمسيح وبعث الامير منقذ برؤوسهم الى السلطان نور الدين يبشرهُ بذلك النصر العظيم فارسل نور الدين الخلع السنيَّة والهدايا الفاخرة لهُ ولامراء عائلتهِ وكبار قومهِ . وولاَّهُ على حاصبيا وما جاورها وظلَّت حاصبيا تحت حكم الشهابيين إلَى عهدٍ قريب

مذبحة حاصبيا سنة ١٨٦٠

وحاصبيا الآن قصبة وادي التيم ومركز الحكومة وهي واقعة عَلَى قاعدة جبل الشيخ الغربيَّة وبالقرب منها النهر الحاصباني المنسوب اليها وحولها كثير من الحدائق والبساتين ذات الاثمار والمناظر البهجة وعَلَى شواطئهِ كثير من شجر الدفلاء والدلب والحور ويكثر في حاصبيا الكرم والزيتون والتين وتوت الحرير وبالقرب منها معادن الحمَّر المشهورة والحديد وعَلَى بعد نصف ساعة منها إلَى جهة النهر خان قديم يظن بانهُ من ابنية الصليبيين وفي كل اسبوع يوم الثلثاء يصير فيهِ سوق يأتيها الناس ببضائعهم من الجهات المجاورة فيروج سوق البيع والشراء ويتجر اهل حاصبيا مع وادي التيم ومرج عيون وفي حاصبيا سوق تحتوي عَلَى نحو مئتي دكان ومنظر ابنيتها حسنٌ وبأهلها ذكاءٌ وجمالٌ وبأسٌ ونشاطٌ عَلَى الاعمال وفيها كثيرون من الامراء الشهابيين الذين حافظوا عَلَى الاسلام .

وفي هذه المدينة دور اهمها السراي التي جرت فيها المذبحة الوحشية كما سيأتي وهي دار متسعة جدًّا تحتوي على القاعات الفسيحة والقصور الشاهقة و بناؤها كان على طرز دور دمشق من حيث الترتيب والانتظام وقد كان عدد سكان اهالي حاصبيا في سنة ١٨٦٠ نحو ستة آلاف نسمة اكثرهم نصارى من طائفة الروم الارثوذكس والباقون دروز ومسلمون وبها جوامع وكنائس وللدروز بالقرب منها معابد مشهورة يسمونها بخلوات البياضة فيها بعض من اهل التقشف والزهد منهم. وقد كان بها سنة ١٨٦٠ نحو ٢٥ اميرًا من آل شهاب المسلمين وكان الشهابيون حكامها وحكام البلاد المجاورة لها وقد تسرفوا في كل ايام ولايتهم عليها بالحسنى مع النصارى وغيرهم ولذلك كان الناس يحبونهم الاَّ الدروز لاسباب ذكرناها

وتقدمت تلك المذابح الدموية الهائلة اعمال مريعة اقل منها جرمًا واتساعًا وكان النصارى يشكون من ذلك ويوصلون شكايتهم إلى آذان احمد باشا في دمشق بواسطة البطركخانات واخصها بطركخانة الروم الارثوذكس التي كانوا يراسلونها كل يوم بما هو واقع عليهم من التعديات والخطر وهي مع غيرها تعرض ذلك على احمد باشا والي الشام وهو رجل اشتهر بالخبائث وسيأتي ذكرهُ وتطلب منهُ تلافي الامور وكف العداء فكان يعدها باجراء ما يجب من هذا القبيل ويظهر لها التطمين ويدعي انهُ ساعٍ في حسم الشرّ وكفّ العداء عن المسيحيين وكان عند ما يخلو بأصحابهِ ويدور الحديث بينهم على الحوادث الجارية الخطرة يقول ربنا أهلك الكافرين بالكافرين واجعلنا بسلام منهم.

ومن الحوادث ٱلَّتي سبقت مذبحة حاصبيا الكبرى في اثناء هياج الدروز واستعدادهم للثورة ان شقيًّا من دروز لبنان وُجد قاطعًا الطريق عَلَى اطراف قضاء حاصبيًّا وقد افسد الحال عَلَى المارة في تلك النواحي حتى صار المرور خطرًا فارسلت فرقة من العساكر لكف شرهِ فظفرت بهِ وقتلتهُ فكان قتلهُ امرًا عظيمًا عَلَى طائفتهِ زاد عنفها على الامراء والنصارى . ثم حدث ان ثلاثة من امراء الشهابيين كانوا بمحل يسمى تل القاضي فسطا عليهم عشرون فارسًا من دروز حاصبيا ولبنان وتجدل شمس وسلبوهم خيولهم وسلاحهم وجرحوا احدهم جرحًا بليغًا في وجههِ لامتناعهِ عن تسليم سلاحهِ و بعد تفاقم شرّ الجماعة وازديادهِ حضر رجل يسمى حسن الطويل من دروز لبنان يصحبهُ خمسون فارسًا إِلَى النهر الحاصباني وكمن في تلك النواحي لقتل من يجدهُ من النصارى فعلم الناس بامرهِ فتمنعوا عن المخاطرة بانفسهم فازداد تقدماً ففقدت لذلك امنيَّة الطرقات و باتت السبل مقطوعة بالكليَّة واذ لم يتمكن هٰذَا الشقي ومن معهُ ممَّا قصدهُ هجم ليلاً على قرية الحوش من قضاء راشيا الوادي وسكانها من النصارى فقتل ثمانية اشخاص منهم والباقون لجأُوا إِلَى الفرار فنهب القرية واحرقها بالنار عن آخرها فتسبب عن عملهِ هٰذَا ازدياد خوف النصارى وقلقهم وظلت الحالة توذن بالخطر الشديد الى ان جاء يوم الجمعة في ١٢ ايار (مايو) شرقي حينما كان اهالي حاصبيًّا والقرى المجاورة مجتمعين في سوق حاصبيا للبيع والشراء فحضر للسوق رجل درزي يسمى علي طيفور من اهالي قرية شويًّا وصاح بقومهِ بقصد تهييجهم قائلاً هنا مئتا خيال من دروز حوران قد حضروا لمرج شويًّا

« فكل عنزة تلحق بقطيعها » وكان الخبر كاذبًا ولكن تسبب عنهُ ارفضاض السوق ومن ثمَّ أخذ الدروز يستعدون للقتال و ينقلون حريمهم واولادهم ومتاعهم إلَى قرية شويًا الواقعة على مسير نصف ساعة من حاصبيًا لانهم جعلوها نقطة مركزيَّة لحركاتهم الحربيَّة وانضمَّ اليهم فيها اكثر من الف مقاتل من دروز مجدل شمس واقليم البلان و بلاد راشيا حتى زاد مجموعهم عَلَى الثين وخمسمائة مقاتل . واما نصارى القرى التابعة لحاصبيا فلما رأوا من الدروز هذه الاعمال تواردوا بعيالهم ومتاعهم إلَى حاصبيا واستعدوا لمقاتلة اعدائهم عند ما يبدأ القتال

وفي غلس السبت الواقع في ١٩ ايار (مايو) شرقي سنة ١٨٦٠ ارسل الدروز شراذمًا منهم نهبوا واحرقوا قرى النصارى واخذوا بالاعتداء عليهم نقتل النصارى في ذلك اليوم وهم يحامون عن ديارهم بضعة اشخاص من الدروز عَلَى اطراف حاصبيا

وفي صباح الاحد الواقع في ٢٠ مايو شرقي خرج الدروز من قرية شويًا فرقًا فرقًا بالبيارق والحداء (الاغاني الحربيَّة) ثم تجمعوا شطرين وهجموا عَلَى اطراف حاصبيا من الجنوب والشمال الشرقي حيث كانت جموع النصارى متهيئة لدفع قوات المهاجمين واشتبك الحرب بين الجانبين نحوًا من ساعة فوقع الفشل في صف النصارى الجنوبي وتقهقر رجالهُ فتبعهم الدروز يصلونهم نارًا حامية فأدخلوهم البلدة ودخلوا وراءهم واخذوا يحرقون بيوت النصارى . اما صف النصارى الذي كان يقاتل في الجهة الاخرى فانتصر عَلَى اعدائهِ غير انهُ لما رأى الحريق في البلدة وعلم بما اصاب الصف الآخر ترك مراكزهُ وعاد إلَى

البلدة وكان الدروز قد تمكنوا منها ودخل النصارى جميعاً إلى سراي الامراء الشهابيين حيث كان العسكر فأخذ الدروز حين ذاك يطلقون الرصاص على السراي فقابلهم الامراء والنصارى بالمثل وحمي وطيس الحرب حتى بلغت الساعة الحادية عشرة نهاراً فتقهقر الدروز تاركين عدداً من القتلى وهكذا انتهى القتال بذلك اليوم بخسارة نحو من اربعين شخصاً من الجانبين . وكانت عساكر السلطان واقفة تشهد القتال ولا تبدي حراكاً

وفي اليوم التالي وهو الاثنين في ٢١ مايو سنة ١٨٦٠ اعاد الدروز وانتشروا قبالة السراي واطلقوا طلقاً اشارة اتفقوا عليها مع قائد العساكر التركية لافتتاح الحرب فرام النصارى مقابلتهم بالمثل فمنعهم عثمان بك قائمقام العساكر وقال بما ان قتلاهم وقتلاكم متساوون عدداً فأنا اصلح بينكم وبينهم وخرج من السراي واجتمع بأعيان الدروز برهة في خلوة البياضة المشرفة على حاصبيا وعاد إلى السراي . وعقب ذلك الاجتماع ازدادت جراءة الدروز وقحتهم فأخذوا ينهبون كلما يجدونهُ في بيوت النصارى عموماً ويحرقون ما كان باقياً منها حتى لم يبقوا على شيء وأعين عثمان بك ورجالهُ تنظر ولسانهُ يكرر التطمين . اما الامراء الشهابيون فالتجأوا إلى بعض بيوت الدروز وقاية لارواحهم وبقي النصارى بنسائهم واولادهم محفوفين بالمكاره والرعب والجوع الا عائلة غبريل بقيت خارج السراي لان كبيرها المرحوم ميخائيل غبريل منع عائلتهُ من دخولها والتجأ بها إلى دار السيدة نائفة جنبلاط شقيقة سعيد بك جنبلاط اللبناني المار ذكرهُ

ومما هو خليقٌ بالذكر هنا ان الامر والنهي صار كلهُ إلَى يد الست نائفة في انحاء حاصبيا حتى صارت هي المتحكمة المطلقة في الاموال والارواح . وكان الامراء الشهابيون من زمان بعيد يطلبون إلَى احمد باشا والي الشام ان يساعدهم على حفظ الامن في البلاد ويرسل اليهم قوة عسكريَّة لهذا الغرض فلم يجب طلبهم الاَّ في هذه الاثناء اذ ارسل اليهم قائمقاماً عسكريًّا هو عثمان بك ومعهُ خمسمائة جندي من الاتراك وكان ارسالهم لقتل النصارى لا لحفظ الامن كما ترى . ولما احدق الخطر بالنصارى جمعوا خمسمائة ليرا عثمانيَّة وقدموها هديَّةً إلَى عثمان بك ليرضى عنهم ويخلص في حمايتهم لانهم يعلمون ان التركي لا يعمل الاَّ بالرشوة فأخذ هٰذا اللعين المال منهم ووعدهم بما يريدون وخان العهد شأن غيره من بني قومهِ الغادرين . واغرب من هٰذا ان سعيد بك جنبلاط جاء حاصبيا بنفسهِ في هذه المرَّة وتحدث مليًّا مع عثمان بك والاغا التركي الذي ارسل للمحافظة (كذا) على راشيا ومنع الاعتداء فيها وعاد إلَى المختارة بعد ان اتفق على كيفيَّة ذبح النصارى بالخيانة والغدر شأن الجبناء الانذال الساقطين فوافقهُ معتمد السلطان على ما اراد . وبعد انصراف سعيد بك ألحَّ بعض النصارى على عثمان بك بضمان ارواحهم فأعطاهم كتاباً رسميًّا بختمهِ يضمن لهم فيهِ المحافظة على ارواحهم واموالهم وحملهم على الطمانينة باسم السلطان . ثم ان هٰذا الضابط التركي منع الناس من ادخال الطعام إلَى النصارى الذين أصبحوا سجناء في السراي فلم يدخل اليهم الاَّ الخبز والماء حتى لا يذوق اولئك المساكين لذة ويبقى افرادهم على قيد الحياة ليقتلهم الدروز قتلاً

وكانت هذه الاخبار قد وصلت دمشق فثار البطاركة والقناصل واعيان النصارى و بعض اصحاب الذمة من المسلمين وتوجهوا كلهم في ساعة واحدة إلَى احمد باشا الوالي يسألونهُ العمل على وقاية النصارى فتعلل واعتذر بقلة العساكر في البلاد وشدة الاضطرار اليها لقمع الثورة في البقاع وحوران ولما لم يمكن لهم اقناعهُ بارسال الجنود الكافية لرد الثائرين ووقاية الارواح في حاصبيا رجوهُ ان يأمر عثمان بك ومن معهُ بنقل النصارى عن بكرة ابيهم إلَى دمشق الشام فلم يقدر على الامتناع واصدر الامر بذلك وارسلهُ في الحال مع احد ياوراندِ ولكنهُ أتبعهُ بامر آخر يلغيهِ . ووصل الامر المذكور يوم وصول نجدات الدروز إلَى حاصبيا تحت أمرة كنج العماد وعلي حمادة كما سترى فقرأهُ عثمان بك لجماعة السجناء ففرحوا فرحًا لا يوصف و بدأوا بالدعاء للسلطان والوالي وعثمان بك وهنأوا بعضهم البعض ونسوا كل مصائبهم الماضية وهم يظنون انهم سيصيرون في دمشق في اليوم التالي فينجون من الخطر ويسلمون ولكن الامر لم ينفذ ووقع بالنصارى الذي حسبهُ لهم العارفون

وقد كان عدد الدروز يتزايد يوميًا مما يردُ اليهم من الجهات المجاورة قصد الغنيمة والفتك فيزدادون بذلك شدَّة وقوَّة و يوم الجمعة في ٢٥ مايو طلب الدروز من عثمان بك المار ذكرهُ تسليمهم جميع أسلحة النصارى ليؤمنوهم علَى ارواحهم او انهم يدخلون السراي عنوة فيقتلونهم عن آخرهم فلبى عثمان بك طلب الدروز وطلب من النصارى اسلحتهم جميعًا ليسلمها لاعدائهم فتردد اولئك المنكودو الحظ لتصورهم بالامر

مكيدة وبكوا لديهِ قائلين ان أُخذ سلاحنا شرك لهلاكنا فاعفنا منهُ حماك الله اما ذلك القاسي فلم يقبل لهم عذرًا واجبرهم عَلَى تسليم اسلحتهم معلمنًا لهم متعهدًا بحمايتهم حتى تمكن غشهُ منهم وفاز بمقاصدهِ . ولما استلم الدروز أسلحة النصارى فرّقوها بينهم وأعين النصارى تنظر وقلوبهم تنذرهم بحاول القضاء وتوّنبهم من اجل سقوطهم في ذلك الشرك الوخيم

ولحظ بعض العقلاء ان القصد ذبح النصارى عن آخرهم في السراي وفي مقدمتهم ميخائيل غبريل فقبلوا اقدام الست نائفة ورجوها ان تقتص من المعتدين وتعفو عن الابرياء المساكين فكانت تقول لهم ان لابدّ من ذبح الجميع لان اخي سعيد بك يامر بقتل كل نصراني عمرهُ من سبعة إلَى سبعة وسبعين وان الحكومة هي التي تريد قتل النصارى عن آخرهم

وفي يوم الاثنين رابع شهر حزيران (يونيو) شرقي الذي هو اليوم الثامن من بدء هذه الحادثة توفي كنج ابو صالح في قرية شويًا وهو شيخ قرية عجلتون شمس المتقدم ذكرها عَلَى أثر جرح أصابهُ في اثناء القتال فعظم أمر موتهِ عَلَى قومهِ فاجتمع سوادهم واحتفلوا لهُ بمأتم عظيم في تلك القرية كان مدارهُ التهييج وطلب الانتقام وفي ذلك النهار (الاثنين) ذاتهِ حضر علي بك حماده من اعيان دروز لبنان مصحوبًا بمئتي درزي شاكي السلاح وعقبهُ وفد الشيخ كنج العماد اللبناني (وقد كان وقتئذٍ محافظًا من جانب الحكومة عَلَى بقاع العزيز) يصحبهُ نحوًا من ستين فارسًا مدججين بالاسلحة ومائة وخمسون شخصًا من نصارى قرية

القرعون أحضرهم معهُ مظهرًا بأن قصدهُ اخذهم مع الامراء والنصارى إلَى دمشق الشام حمايةً لهم

وبعد ورود هاتين النجدتين بساعات قليلة اخذت فرق الدروز تقوم من قرية شويًا بهيجان عظيم متوافدة عَلَى حاصبيًا متجمعة حول السراي ورأى النصارى قرب ساعة الخطر فحاولوا الخروج من السراي وخاف عثمان بك ان يفلتوا من يدهِ ويخلصوا من الذبح فعاد إلَى تطمينهم واطلق مدفعين في الهواء وهو يقول لهم انهُ قطع دابر الدروز بهذين المدفعين فسكت المساكين ولكنهم رأوا خداع هٰذا التركي في الحال

وفي الساعة التاسعة من النهار اجتمع في جامع البلدة علي بك حمادة وكتخ عاد المذكورين مع اكابر دروز بلاد حاصبيًا مثل مشايخ بيت قيس وخلافهم واستمروا مجتمعين إلَى الساعة العاشرة ثم خرجوا وطلبوا من عثمان بك القائمقام ان يسلمهم الامير سعد الدين شهاب وصهرهُ الامير جهجاه واحد عشر شخصًا من كبار النصارى واعيانهم ليقتلوهم فلبى طلبهم عَلَى الفور واخذ يسلمهم المطلوبين واحدًا فواحدًا مبتدئًا من النصارى وكان الدروز كلما استلموا شخصًا أماتوهُ شرّ ميتة بتقطيعهِ اربًا اربًا واول من قتل على هذه الصفة جرجس الريس كان يومئذٍ اكثر النصارى وجاهةً وكاتم اسرار الحاكم الامير سعد الدين شهاب قيل انهم قطعوهُ اكثر من مائة قطعة فيالله من هٰذا التوحش الفظيع والفعل المنكر

وبينما كان القائمقام مشتغلاً بعملهِ هٰذا الدال عَلَى خيانتهِ العظيمة لسلطانهِ ورعيتهِ هجمت جماهير الدروز عَلَى السراي هجمةً واحدة

ودخلوها من ابوابها دون ان يمانعهم العسكر اقل ممانعة وبعضهم تسلق جدرانها واحتشدوا في ساحتها الداخليَّة ٱلَّتي كانت غاصة بالجانب الاكبر من النصارى رجالاً ونساءً واطفالاً فازدحم هؤلاء المساكين في الجهة الشرقيَّة من ساحة السراي وطير الموت حائم فوق رؤوسهم وكأني بهم وحالتهم هذه لحمًا على وضم وقد اصطفت الدروز في داخل السراي صفوفًا مرتبة كالعساكر المنظمة لتفتك بفريسة ليس لها من وسائل الدفاع شيئًا وما الفتك بها وهي على هذه الحالة الاَّ اهانة للفاتك واظهار لجبانته . ولما انتظمت صفوف الدروز صعد علي بك حماده المذكور إلى شرفةٍ في أعلى جدران السراي وجلس على كرسي واشار إلى صفوف قومهِ باشارةٍ فهموها فأطلقوا الرصاص على النصارى المزدحمين في الجهة الشرقيَّة من الساحة كما مرَّ فتساقط هؤلاء المساكين موتى سقوط ورق الاشجار وعيون اعدائهم تشخص بهذه المناظر المريعة بدون ان تأثر قلوبهم او ترق لرجال ونساء واطفال أُخذوا غيلة ومكرًا وخديعة وبعد هذا الطلق صاح علي بك بقومهِ ان يكفوا عن اطلاق الرصاص حذر اصابة بعضهم بعضًا وان يكملوا مذبحتهم الهائلة بالسلاح الابيض فسمعوا قولهُ وسلوا سيوفهم وخناجرهم ومديهم وانقضوا على فريستهم انقضاض الكواسر مغنين متنافسين بأعمالهم البربريَّة ٱلَّتي تشيب لهولها الولدان وتقشعرُّ من ذكرها الابدان وكانوا كلما ازداد اولئك المساكين نواحًا واسترحامًا واستغاثة ازدادوا قساوة وفظاعة وخشونة وظلوا بأعمالهم حتى جاءوا على قتل جميع من كان بساحة السراي ومخارمها السفلى من الرجال مصحبين معهم رجال القرعون وهم الذين أُتي بهم من البقاع .

وقد تغطت ساحة السراي بجثث القتلى وخرجت دماؤهم من جدرانها وصار في ارضها بركة يسبح بها المقتولون ما بين مقطوع الراس ومبتور الرجل ومكسور اليد ومشقوق البطن ومطعون الصدر ومصاب الظهر. منظر تنفطر لهُ الاكباد وتتمزق من هولهِ القلوب. ولما أُكمل هٰذا العمل في اولئك المساكين امام والدة ترى هلاك ولدها وزوجة عذاب زوجها وولد حتف ابيهِ واخت مصاب اخيها اخذ الدروز يدوسون اولئك القتلى بنعالهم ويبحثون بينهم عمن بهِ رمق من الحياة فيكملون عليهِ. ولما أنهوا هٰذا العمل المريع صعدوا إِلَى أعلى السراي حيث كان الامير سعد الدين والامراء والعساكر وبعض النصارى مع اكثر النساء وهناك استأنفوا عملهم فبدأوا اولاً بالامير سعد الدين ولم يمهلوهُ ليصلي ركعتين لله قبل موتهِ فقطعوا رأسهُ وطرحوهُ من أعلى السراي إِلَى خارجها قائلين خذوا يا ايها المسلمون راس اميركم وادفنوهُ وارسل راس هٰذا الامير إِلَى سعيد بك جنبلاط في المختارة ثم قتلوا صهرهُ الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء الشهابيين احدهم أعمى وأطرش وقصدوا ان يأتوا عَلَى قتل بقيَّة الامراء الاَّ ان هؤلاء لما رأوا ما حل بالامير سعد الدين ومن قتل معهُ من الامراء دفعهم هول المنيَّة وحب الحياة إِلَى الدخول بين نساء العساكر واحتمائهم بهنَّ فانكفأ عنهم الدروز خوف سوء العقبى. ثم اعملوا سيوفهم بمن كان باقيًا من النصارى وافنوهم عن آخرهم ولم ينجُ منهم الاَّ الذين رموا بأنفسهم من اعالي جدران القلعة ومن غلبت حياتهم عَلَى جراحهم الكثيرة البليغة وقد نهبوا جميع ما في السراي من متاع ومصاغ وملابس النساء ايضًا

ومن اغرب حوادث هذه المذبحة الفظيعة ان عثمان بك التركي الذي تعهد بشرفهِ وشرف حكومتهِ ان يقي رعيَّة السلطان من القتل كان قاعدًا إلَى كرسي عَلَى باب السراي ورجالهُ من حولهِ وهو يرى تلك الاهوال ويقهقه ضاحكًا مسرورًا وكان العساكر يردون كل مسكين يقصد الباب طلبًا للنجاة ويرمونهُ بالرصاص فيقتلونهُ في الحال ووقع واحد من هؤلاء المساكين تحت قدمي عثمان بك فوضع رجلهُ عَلَى جثتهِ وبقي عَلَى هٰذَا الحال إلَى ان انتهى الوحوش من فعلهم المريع الهائل . وبعد ان تمَّ تشخيص هٰذَا الدور الوحشي المريع عَلَى مرأى من عثمان بك ومن معهُ من الضباط والعسكر توجه عثمان بك إلَى السيدة نائفة المذكورة وطلب اليها ان تأتي السراي وتنقذ العساكر (لانهُ رأى الثائرين طامعين بهم) ومن بقي من النساء والاطفال وبقيَّة قليلة جدًّا من الرجال فترددت عن اجابة طلبهِ ولكنهُ اعاد عليها الالتماس وساعدتهُ عائلة غبريل الموجودة بدارها فرضيت وحضرت إلَى السراي في نحو الساعة الاولى من بعد غروب شمس ذلك اليوم المشوم (الذي هو يوم الاثنين في ٤ حزيران (جونيو) شرقي سنة ١٨٦٠) وطلبت من قومها الاكتفاء بما فعلوا فانكفأوا عن القتل فأخرجت العسكر ومن بقي بقيد الحياة من النصارى واتت بهم إلَى دارها وفي تلك الليلة نفسها احرق الدروز السراي المذكورة عن آخرها . وكانت هذه الفاجرة المتوحشة حين حضورها إلَى السراي تبتسم وتضحك وتهنئ رجالها الدروز عَلَى ما اتموا من العظائم وهم ما اتموا غير الغدر والخيانة شيمة الجبناء الانذال

وكان في اثناء هذه الحوادث قد لجأ بعض النصارى من اهالي

حاصبيًا وضواحيها إلَى السواحل فقتل الدروز اكثرهم في اراضي مرج عيون حيث كانوا لهم بالمرصاد

اما العسكر والامراء وباقي النصارى الذين يبلغون نيف واربعمئة نسمة فبقوا في ساحة دار الست نائفة المذكورة وكانت الدار محاطة بدائرة من الدروز يتهددون الذين داخلها بالقتل والعذاب وبعد ستة ايام من حادثة السراي ورد امر للعسكر بالذهاب إلَى دمشق فذهب وصحبهُ علي بك حماده لقرية الديماس (تبعد عن دمشق ست ساعات) وودعهُ ورجع إلَى حاصبيًا

ويوم الثلاثاء في ١٢ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠ الذي هو اليوم الثامن لمذبحة السرايـي الهائلة اجتمع وجوه الدروز عمومًا بدار الست نائفة واقرُّوا عَلَى اعدام اللاجئين بدارها من الامراء والنصارى وانتخبوا ثلاثمائة من رجالهم لانفاذ ذلك وقد حفظوا الامر سرًّا بينهم بيد انهُ لم يخفَ عَلَى المقضي عليهم حيث علموا بهِ وباتوا بخوف يترصدون حلول الساعة . وفي اليوم التالي (الاربعا) في ١٣ حزيران (يونيو) عند الساعة العاشرة عربيَّة عزمت الست نائفة عَلَى ترك الدار والتوجه الى خلوة البياضة لينفذ القرار بغيابها فتعلق الامراء والنصارى بأذيالها واخذوا ينوحون لديها ويلتمسون شفقتها عليهم وبقاؤها في الدار حفظًا لحياتهم . وبينما هم على هذه الحال وفد اليها من اخيها سعيد بك رسول بتحرير منهُ يحرّضها بهِ على وقاية حياة جميع من كان باقيًا من النصارى بدارها ويلقي عليها مسئوليَّة اقل ضرر يصيبهم ويأمرها ان تأتي اليهِ بجميع من عندها بنسائهم واولادهم . وكان ذلك خداعًا منهُ

يقصد بهِ التخلص من المسئوليَّة حين اللزوم ولم يصدر هٰذا الامر الاَّ بعد علمهِ بذبح النصارى على حسب تعليماتهِ المنكرة فأَبلغت هٰذا التحرير عموم الدروز فأَطاعوهُ ومن ثمَّ اخذت جميع من عندها وتوجهت بهم الى قرية المخارة محل اقامة اخيها المذكور فبقوا هناك بضعة ايام ثم ذهبوا الى السواحل البحريَّة عراة حفاة طلبًا للرزق وسدًّا للعازة فذاقوا مرارة العيش وشدَّتهِ واستمرُّوا يتعيشون من فضل المحسنين الوطنيين والاجانب حتى زالت الثورة . وقد اسفرت هذه الحادثة المشومة عن القتلى الآتي بيانهم :

قتلى نفس حاصبيَّا وغيرها من المسيحيين

٥٥٩	شبان
٠٣٠	اطفال لم يتجاوز سنهم الخامسة ٢٠ ونساء ١٠
٠٥٥	من اهالي قرية الكفير
٠١٣	من اهالي راشيا الفخار
٠٠٨	من اهالي قرية ابو قمحة
٠٠١	من قرية ميمس (كاهن)
٠٠٧	من قرى اخرى
٠٥٠	الرجال الذين اتي بهم من القرعون كما مرَّ
٠٠١	من الشام ندرا طوَّا ابن شقيقة المطران جراسيموس فرح
٧٢٤	مجموع قتلى النصارى

وعدد قتلى الدروز ٤٠

فصل

في راشيًا الوادي ومذابحها

هي قصبة قضاء باسمها في وادي التيم في الجهة الشماليَّة الغربيَّة من جبل الشيخ تبعد نحو ١٢ ساعة عن دمشق إلَى الجنوب الغربي واقعة عَلَى جانبي رابية في وسط وادي التيم تجاه اعلى قمم جبل الشيخ ولذلك سميت براشيا الوادي تمييزًا لها عن راشيا الفخار . وارتفاعها عن سطح البحر نحو خمسة آلاف قدم وهواؤها جيد جدًّا موافق للصحة غير ان ماءها قليل ومناظرها جميلة وعَلَى الخصوص من اعلى الرابية فان الناظر يشرف منها على ارضٍ طويلة حولهُ من الجبال والاودية . ومن القرية يسرُّ النفس منظر قمم جبل الشيخ المكسوة بالثلوج . واهلها اقوياء اشداء صحاح البنية يعمرون طويلاً لجودة هوائها وتعوُّدهم الاعمال البدنيَّة قيل ان بعضهم يعمر فوق المائة وقلما يشكون مرضًا . وعدد اهلها جميعًا اكثر من ٤٥٠٠ اكثرهم نصارى من طائفة الروم الارثوذكس و بعضهم بروتستانت . واما تجارة راشيًا فمقتصرة عَلَى القسم الشمالي من وادي التيم واقليم البلان لكن كثيرًا منها يرسل إلَى حوران وغيرها ولها تجارة ايضًا مع بيروت والشام واكثر محصولاتها من الحمص والتبغ والقمح والشعير واراضيها وما جاورها من القرى وعرة ولكنها مخصبة وهي قليلة

الفاكهة والخضرة لقلة مياهها فيأتيها ذلك من سوق وادي بردى واما الكرم فيها فكثير وعنبها فجيد لذيذ . واما تاريخها فليس بقديم على ما يظهر وليس بها من الآثار ما يدل على قدميتها الاَّ اسمها السرياني ويظن انها لم تعرف تاريخيًا قبل الصليبيين وهؤلاء بنوا بها مركزًا حربيًا لمقاتلة العرب الذين قدموا وادي التيم من شهباء حوران فسموا الشهابيين وذلك على عهد صلاح الدين الايوبي اي في القرن السادس للهجرة . وهذا المركز هو برج موجود في القلعة الَّتي بناها الشهابيون عند ما اخذوا المكان عنوةً من الصليبيين وجعلوها مركزًا لحكمهم ودارًا لسكنهم . وقيل انهم كانوا قبل بناء القلعة يأتون البرج المذكور ويصطادون الطير قرب عين ماء هناك وبذلك كثر الريش عندها جدًا فسمي البرج برج الريش . قيل ومن ذلك اسم القرية ولذلك النسبة اليها ريشاني . وبعد بناء القلعة وتمكن الشهابيين هناك اخذ العمران يزداد إلَى ان كبرت القرية وجمعت كثيرًا من السكان وكانت فيها منازل قدماء بني الاطرش . وقيل كان بها منشأ الدعوة الدرزيَّة في وادي التيم . واشتهرت بها من الدروز عائلة بني العريان الَّتي طار ذكر كبيرها شبلي باشا العريان وقد مرَّ ذكرهُ

مذبحة راشيا الوادي

كان الدروز والنصارى في راشيا الوادي على وفاق بعضهم مع بعض اكثر من غيرهم الاَّ ان مقاصد الدروز في سنة ١٨٦٠ ونوايا الحكومة غيرت الاحوال في تلك الايام وجعلت غاية الدروز دماء

النصارى واموالهم وقد كان نصارى راشيا الوادي في تلك الايام كغيرهم لا يظنون بان الامور تبلغ تلك الشدة والفظاعة لاسيما انهم رأوا حكومة احمد باشا في دمشق قد بعثت إلَى مدينتهم عدداً كبيراً من العساكر المنظمة وانزلتهم القلعة او سراي الامراء الشهابيين الَّا انهُ لما رأى الراشانيون استفحال الامور كل يوم عن امسهِ في لبنان وامتداد الاعتداء إلَى وادي التيم ونهبهم قريتي الظهر الاحمر والحوش واحراقهما وزحفهم عَلَى حاصبيَّا بدون معارض زال اطمئنانهم واوجسوا شرًّا وباتوا باضطراب كمن يتقلب عَلَى جمر الغضاء خوفاً ورعباً حيث علموا بان الدروز لا بدَّ من ان يقصدوهم فأخذوا من ثمَّ يعقدون الاجتماعات للنظر في الوسائل الَّتي تنقذهم من الويل المحدق بهم وبعد مداولات كثيرة لم يتفقوا عَلَى رأيٍ حميد وما ذلك الَّا لتأثير سطوة الدروز بهم واتفقوا عَلَى السعي وراء السلام والسلامة وقرَّروا ان يذهب كبراؤهم وقسوسهم وشيوخهم إلَى عقلاء الدروز ويعرضون عليهم بذل الغالي والنفيس استرضاءً لخواطرهم وكفًّا لهم عن الشرّ فان نالوا بذلك السلامة والامان كان المرام والَّا فيدافعون عن انفسهم ما امكن وقد كان هٰذا الرأي من انحس الآراء واشأمها واشدها شرًّا عَلَى النصارى لانهُ ازال من خواطر الدروز ما كان بهم من هيبة النصارى وخوف بأسهم . وفي يوم الاثنين الواقع في ٢١ ايار شرقي (مايو) سنة ١٨٦٠ ذهب منتخبو النصارى لقضاء مهمتهم وطافوا بيوت جميع كبراء الدروز يبذلون لهم الدرهم والدينار خاضعين متواضعين وصرفوا بذلك يومهم كلهُ وانتهوا في المساء راضين عما اظهرهُ الدروز لهم من

اللين والملاطفة والمواعيد الكاذبة والتطمينات الفارغة حتى ظنوا بانهم نالوا المرام وقد زاد غرورهم بما أولم لهم الدروز بذلك اليوم من الولائم وما سمعوا من القول اثناء تلك الولائم وهو « اننا واياكم اخوان في الوطن وما بيننا و بينكم الاَّ العيش والملح والحب والسلام » وقد خرج في مساء ذلك النهار المنادون ينادون عَلَى الناس قائلين يا ايها الناس لايحسبنَّ احدكم حساباً لمكروه ولا يظننَّ بنائبةٍ وليذهب كلٌّ لاعمالهِ فان الجميع في ترادٍّ وحب ولايوجد الاَّ السلام والامان فاغترَّ النصارى بهذه المناداة ومن ثمَّ لم يعودوا يلتفتون إِلَى الاخطار المحيطة بهم ولا ينظرون إِلَى المحافظة عَلَى قوتهم لاسيما عند ما اكد لهم ضباط العساكر ما اكدهُ الدروز وقد تركوا اسلحتهم وابعدوا عنهم كل احتراس . وكان الاغا التركي قد تخابر ملياً مع سعيد بك جنبلاط واتفق معهُ على اشارات معلومة يفهمها الدروز وعلى احاطة راشيا بالجند حتى لا يفر واحد من النصارى قبل المذبحة وسافر سعيد بك إِلَى المختارة بعد ان رأى اوامرهُ تعمل في راشيا . وبعد غروب شمس ذلك النهار بوقت قصير سمع صوت طلق بارود من جهة غربي البلد . لم يمضِ على ذلك خمس دقائق حتى ملأَ الضجيج الفلاء وعلت الضوضاء ومزَّق صوت البارود كبد السماء واطبق الدروز على النصارى من اكثر جهات البلدة فوقع النصارى في حيرة واندهاش لان الذي حدث نقيض ما صدقوهُ من وجود الامان وما وثقوا بهِ من الايمان ومع ذلك لما شعشهم بقدر الطاقة وما سمحت بهِ الفرصة وحملوا اسلحتهم ووقفوا للدفاع بوجوه اعدائهم الغادرين وقد بدأت المناوشة اولاً من جهة الشمال واستمرَّت

وقتاً قصيراً دافع بهِ النصارى عن انفسهم دفاعاً حسناً وفي اثناء ذلك وجه الدروز قواهم إلَى الجهة الغربيَّة من البلدة وحملوا على حارة النصارى وقد كان الدروز يحسبون حساباً لهذه الحارة لعلمهم بشدة رجالها وقوة بأسهم وقد وجهوا القوة اليها من ابتداء الامر فوقف النصارى لاعدائهم وقوف من يحامي عن دمهِ وديارهِ بقلوب اثبت من الجلمود وهمم كهمم الاسود وقد استعرت نيران الوغى بين الفريقين وتحصن النصارى ببعض الصخور فوق محلتهم ودارت رحى الحرب وعلى الاخص على رؤوس اكمة وعرة تدعى بالمنشار وقد جاء ساحة الموقعة كل نصراني شجاع في البلدة ينجد اخوانهُ ويساعدهم على ملاقاة الخطوب والدفاع ففاز النصارى فوزاً لم يكن لهم بحساب اذ انجلت هذه الموقعة عن نحو ٧٠ قتيلاً من الدروز واثني عشر من النصارى الَّا انهُ لسوء بخت النصارى كانت قوتهم محدودة وقوة اعدائهم متدفقة لاسيما وان العساكر كانت متواطئة مع الدروز باطناً ولاجل هذه الاسباب لم يكن فوز النصارى الَّا من جهة واحدة فقط لان الجهة الاخرى خلت من المدافعين فاغتنمت فرقة كبيرة من الدروز الفرصة وتقدمت إلَى بيوت النصارى ونهبتها واحرقتها عن آخرها ولما انقضى الليل واصبح صباح الثلاثاء في ٢٢ ايار (مايو) شرقي كثر وفود الدروز عَلَى هذه البلدة من جميع النواحي والاطراف فاظهر قائد العسكر الاشفاق عَلَى النصارى لتزايد عدد اعدائهم ودعاهم إلَى دخول قلعة البلدة صيانةً لهم فلبى النصارى ذلك واخذوا يدخلون القلعة فرقاً فرقاً وكان كلما دخلت فرقة يأخذ سلاحها بداعي انها صارت تحت حمايتهِ وهو المسئول بالمدافعة

عنها وكانت القلعة قريبة جدًّا من محل القتال فلذلك سهل على النصارى دخولها ولم ينتصف ذلك النهار « الثلاثا » حتى لم يبق في ساحة القتال من النصارى واحد وصار جميعهم في وسط للقلعة مجردين عن الاسلحة واسباب الدفاع . اما العسكر فقد تلقى المحتمين به في بادىء الامر بالوجه الباش والمحيا الباسم تطمينًا لهم وتسكينًا لخواطرهم فانخدعوا بهذا الملتقى وما لبثوا ان أُحيطوا بعدد وافر من الجند احاطة السوار بالمعصم فباتوا في شرك الموت لا يرون للمدافعة او الفرار سبيلاً

اما الذين لم يدخلوا القلعة من النصارى فقد ذهب جانب منهم والتجأ إلى بيت احد وجهاء الدروز المدعو خزاعي اغا العريان وكان اكثر هؤلاء النصارى من طائفة السريان الكاثوليك ونفر قليل منهم من الروم وما لجأ السريان بخزاعي العريان الاَّ لما بين العناحلة السريان « العناحلة نسبة إلى عين حليا التي جاؤا منها » والعريان من الصداقة القديمة والاتحاد فان كلا الفريقين كان من الحزب الجنبلاطي وقد قبل خزاعي اغا من لجأوا اليه وهم وثقوا به ايضًا ووضعوا اسلحتهم في احدى زوايا بيته الاَّ ان اكثرها سرق من نفس اهل البيت وكان دخول هؤلاء الجماعة لبيت العريان مساء الاثنين في ٢١ ايار (مايو) اثناء ورود جموع الدروز بعد المناداة بالامان كما تقدم القول ولما حمي وطيس الحرب في ليلة الثلاثاء وازدادت خسائر الدروز تهدد الدروز اليزبكيَّة خزاعي اغا لانهم اعداؤه وانذروه بقتل جميع اللاجئين اليه وكان شهمًا لا يخون اللاجئ به فجاء داره وخاطب المسيحيين الذين عنده وعددهم خمسون رجلاً قائلاً يشق عليَّ جدًّا ان اخبركم بثقل

الحال عليّ وعليكم لان الدروز اضمروا الشر لي ولكم وليس بالوسع دفع اعتدائهم فحياتي ابذلها دونكم ولكن ذلك لا يضمن لكم الحياة فلحفظ حياتكم اشير عليكم ان تنهضوا والليل راخٍ سدولهُ وتقطعوا جبل الشيخ والقوم مشتغلون عنكم بالقتال فتصلون دمشق و يكون لكم بها مأمن على انفسكم وقد كان هذا الرأي دليلاً على امانة خزاعي اغا المذكور واخلاصهِ لان كل الذين خرجوا من دارهِ نجوا بأنفسهم ولم يفقد منهم سوى اثنين او ثلاثة فقط في دمشق الشام حين حادثتها

وقد هاجر ليلة الموقعة قسم كبير من النصارى قاصدين الجبال والبراري والبلدان الاخرى فمنهم من ذهب إلى لبنان وزحلة ومنهم من جعلَ وجهتهُ دمشق ومنهم من سار إلى الجنوب الغربي نحو لبنان فقتل كثيرون من الفارين في نواحي البقاع وجهات اخرى . وقد قتل عدد وافر في نفس البلدة ايضاً ممن لم يحضر الموقعة

وكان قد لجأ قسم آخر من النصارى إلى بيوت وجهاء الدروز فأجاروهم في بادىء الامر الاَّ انهم في اليوم الثاني (الثلاثاء) نهضوا عليهم وقتلوهم بدون اشفاق خائنين حرمة العهود والجوار وكان من اشر الذابحين اللاجئين اليهم المشايخ اولاد ذاكي والمشايخ اولاد نصار فانهم اتوا من فظاعة الاعمال ما لا يوصف . اما المشايخ من آل عريان غير خزاعي فانهم دافعوا وحاموا عمن استجار بهم وكلٌ يذكر بما صنع والله لا يضيع اجر محسن وهكذا تفرّق القوم شذر مذر فكانوا بين قتيل وفار وملتجئ الى القلعة ومعتصم بآل عريان الكرام

اما الذين دخلوا القلعة فقضوا فيها نحواً من ثمانية ايام كانت عليهم

أمرّ من الصبر واصعب من غصص الموت ذلك لان العسكر بعد ان رحبوا بهم يوم دخولهم ولاطفوهم قلبوا لهم ظهر المجن وعاملوهم بالقسوة والاهانة وشتيمة عقيدتهم وتبشيرهم بما سيصير اليهِ حالهم من السوء وما ينتهي اليهِ امرهم من الميتة الشنيعة وانهُ لا مهرب لهم من الشرك الذي سقطوا بهِ فليتصوّر القارئ حالة اولئك المساكين في تلك الايام الصعبة لاسيما عند ما شعروا بسقوطهم في شرك لاخلاص لهم منهُ وان من كان واجب عليهِ حمايتهم اصبح خائنًا لهم ولم يكن لهم في سجنهم هذا مأكل ومشرب الاَّ انهُ سمح لنسائهم بالتردد عليهم وتقديم المأكل لهم ممَّا بقي من النهب وقد استمرُّوا عَلَى هذه الحالة السيئة ينتظرون سوء المصير إلَى يوم الثلاثا في ٢٩ ايار (مايو) شرقي فانهُ في ذلك اليوم قدم وفود أُخر من الدروز من جهات مختلفة فرُّوا براشيا . وكان اكثرهم من دروز حوران انجلوا عن حاصبيًا بعد مذبحتها وقصدوا الانضمام إلَى الذين كانوا حول دير القمر من ابناء جنسهم فلما رآهم الاغا التركي اشار اليهم بالمجيء فجاؤوا ودخلت الفرقة الاولى منهم من بابي القلعة واعين العساكر تنظر اليها وقلوبهم ترحب بها وكان بأيديها السيوف والمدي والفؤوس وهي تهلل تهاليل الظفر والفوز ثم تبعها شراذم الدروز ينشدون نشائد الانتصار و يطلقون البنادق و يتهللون كانهم في مرسح فرح ثم اطبق باقي الدروز عَلَى القلعة والعساكر حافظين منافذها كي لا يفرّ احد من اولئك المساكين الذين اضحوا فريسة للذبح

ولما استوت فرق الدروز داخل القلعة امام فريستها ورأى اولئك المساكين سوء مصيرهم وغراب البين حائم فوق رؤوسهم جنحوا الى

العويل والاستغاثة بضباط العساكر طالبين الاشفاق والمرحمة فلم يكن من مشفق ولا راحم ثم جرد الدروز سلاحهم السيوف للذبح والسكاكين للنحر والفؤوس للتقطيع والدبابيس لكسر العظام والجماجم وهجموا على اولئك المساكين حيث كانوا مجتمعين في رواق قصر الامير فندي شهاب في القلعة وما طال الامر حتى جرت المذابح وانحدر الدم إلى اسفل حيث كانوا بعد ان يخنوا الرجل جراحاً يذبحونهُ و يلقونهُ من من اعالي القلعة فيسقط إلى الحضيض متكسراً متمرضاً على الصخور ولم ينجُ من كل من كان في القلعة الاَّ رجلٌ واحدٌ القى بنفسهِ من اعلى قصر في جهة الشمال وقد اطلق عليهِ الدروز الرصاص مراراً فلم يصيبوهُ بسوءٍ فتخلص ولم يكن احد من الدروز اثناء هذه المذبحة الهائلة يرق لنواح امرأة تشق الجيوب وتنثر الشعور او يتأثر من دمع رجل يفقد حياتهُ وامرأتهُ واولادهُ او يشفق لصراخ اطفال ينادون والدهم او والدة تلثم الارجل ملتمسة البقاء على ولدها وفلذة كبدها . والغريب ان الدروز والعساكر كانوا يعجبون ويفتخرون بهذه الفعال مع ان قتل الرجال بالخيانة بعد تجريدهم من السلاح وحصرهم في القلعة اكبر آيات الجبن وفقد المروءة

ولما انتهى الدروز من فتكهم هذا جمعوا رؤوس الامراء الشهابيين الذين قتلوهم مع المسيحيين في القلعة وعددهم اثنا عشر اميراً ورؤوس اعيان النصارى ورتبوهم في ديوان الامير فندي كمجلس حافل ووضعوا في افواه اكثرهم عصياً للتشفي والاستهزاء والسخرية

وفي اليوم التالي الذي هو يوم الاربعاء في ٣٠ ايار (مايو) شرقي

بكر الدروز واقاموا حفلة سرور وافراح وولائم في تحل المجزرة الوحشيّة فرقصوا وطبلوا وزمروا وانشدوا ابيات المعنى معرضين بذكر شنائعهم وشامتين بالذين ماتوا ضحيّة عسفهم وجورهم اولئك المظلومين الذين لجأوا إلى كنف حكومة احمد باشا براشيا واحتموا في قلعة عساكرها فخانتهم الحكومة وسلمتهم للانذال الجبناء الذين فتكوا بهم وهم لا يقدرون على الدفاع عن انفسهم

وكان المرحوم المطران جراسيموس فرح الدمشقي مطران ابرشيّة وادي التيم وقتئذٍ لطائفة الروم الارثوذكس قد بذل غاية الجهد ليلاً ونهاراً في ملافاة الامور لدى مشايخ الدروز ووجهائهم وقواد العساكر في حاصبيّا وراشيّا لحقن الدماء وابعاد اسباب الخراب فخاب سعيهُ

وقد اسفرت حوادث راشيا الوادي عن قتل ٢٧٠ ذكراً داخل القلعة ٠ و٢٣١ خارجها في اماكن مختلفة من البلدة وفي الخارج فيكون مجموع قتلى راشيا ٥٠١ ٠ هذا غير الذين قتلوا في قرى اخرى من وادي التيم وحرقت ديارهم ونهبت كما حرقت راشيا ونهبت ٠ وقد قتل من قرى مرج عيون نحو العشرين والباقون هربوا إلى جهات مختلفة

فصل

في دير القمر ومذاهبها

دير القمر قصبة مديرية على بعد ٧ ساعات من بيروت إلى الجنوب الشرقي ونصف ساعة عن بيت الدين وهي بحسب نظام لبنان الحديث مركزهُ . ولما حضر داود باشا المتصرف الاول اقام فيها دوائر الحكومة إلى ان اشترى بيت الدين وجعل لها بعد ذلك مديراً مستقلاً يراجع في الامور السياسيَّة المتصرف ومحكمة كمحاكم اقضية لبنان فتستأنف احكامها توًّا إلى محاكم المركز . وعدد اهلها بحسب احصاء سنة ١٨٦٢ ٨٥٧ مارونيًّا و ١٧٢ كاثوليكيًّا و ١١ درزيًّا في خلوات جرنايا فالمجموع ١٠٤٠ ذكرًا . واما الآن فعددهم نحو خمسة آلاف نفس وكانت هذه البلدة مدينة الجبل العظمى وقصبة الدروز اشتهرت بمصنوعاتها ونشاط اهلها واقدامهم ورواج تجارتها وابنيتها العظيمة من عهد الامراء المعنيين . وقيل انهُ في سنة ١٨٦٠ كان اهلها نحو ٨٠٠٠ نفس بين مسلمين ودروز ونصارى ويهود فلما حدثت فيها المذبحة الكبرى في تلك الثورة قلَّ اهلها كثيرًا بالقتل والمهاجرة وكانت قبل فتنة سنة ١٨٤١ موطنًا للمشايخ النكدبين حكام القطيعة فلما وقعت الفتنة بين الدروز والمسيحيين في السنة المذكورة طردوهم منها . واما ارزاق دير القمر فاكثرها توت وزيتون وكروم وكان لها تجارة واسعة مع بيروت وصيدا

والشام ولبنان ووادي التيم وكان ينسج فيها الاقمشة الحريرية والقطنية ولاهلها ذوق في الاقمشة الحريرية المنقوشة وفيها سوق عامرة يقصدها الناس كل يوم من الجهات القريبة والبعيدة لاجل البيع والشراء . واهم حاصلاتها الزيتون والكرم والحرير والحبوب واهلها اصحاب جد واقدام وذكاء في الاعمال . وبعد رحيل ابراهيم باشا عن سوريا انصبت على الاعمال والعلم وقد زادت انصبابًا على ذلك بعد الثورة التي حدثت بها في سنة ١٨٦٠ بين الدروز والنصارى واشتد تمسك النصارى بعروة الاشغال والمدنية والعلم بعد وضع النظامات الخيرية لان الامنية زادت وقتئذٍ ووجد نصارى دير القمر بان تفرغهم للاشغال افضل لهم مما سواه وقد افلحوا بما اتوه حتى انحصرت تجارة شمالي لبنان وبعض اواسطه بهم . واشتهر من علمائهم المرحوم العلامة ميخائيل مشاقه واخوه جبران وغيرهما ولتاريخ هذه المدينة علاقة كبرى بتاريخ لبنان لاسيما في ايام امرائه وعشائره واما في هذه الايام فقد انحط عدد سكان دير القمر عما كان عليه لما اصابها من حوادث سنة ١٨٦٠ ولما تقرر عند صرف مشكلها ووضع نظامات لبنان من ان لا يسكنها بل لا يطأها درزي ولكن مع ذلك فقد ازدادت ابنيتها عدًا واتقانًا ممن رجع اليها من اهلها بعد تلك الحوادث

وفي ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٨٥٩ عند ما بدأت حادثة بيت مري الاولى كما تقدم وامتد سعيرها حسب مسيحيو دير القمر بان تلك الحوادث لا يتأتى عنها سوى التدمير والخراب وانه سيزداد شرها كلما ازدادت التحزبات واقل نتيجة في ذلك لدير القمر بوار اعمالها

ووقوف تجارتها فتلافياً لهذه الاخطار ودفعاً لما خشوهُ من الملمات اجهدوا النفس في دوام الالفة بينهم وبين الدروز وسعوا في كل ما يؤيد السلام والراحة و يوجد الطمأنينة . وقد عجب جيرانهم الدروز من هذا السلوك وارتاحت افكارهم من جهة دير القمر و باتوا لا يخشون منها بعد ان كانوا يحسبون لها اشد حساب وقد امتدحت الحكومة المحلية وقناصل الدول العظمى في بيروت خطة الديريين واثنوا عليها ثناءً عظيماً

اما الدروز الذين كانوا ينظرون إلى تقدم دير القمر وزحلة بعين الحسد ويطمعون بما لمسيحيي هاتين البلدتين من الاموال فقد سرُّوا من جنوح نصارى دير القمر إلى السلام وتقاعدهم عن الاستعداد لحربهم وحسبوا بأن تقاعد دير القمر يجعلها مغنماً لهم لاسيما لما كانوا يعلمونهُ من سياسة احمد باشا ونوايادُ واعتقدوا بأن سقوط دير القمر يسبب سقوط زحلة ايضاً و بعد سقوط هاتين المدينتين وحاصبيا وراشيا يستقلون بالنفوذ في اواسط لبنان وجنوبيهِ وفي وادي التيم والبقاع وتمسي تلك البلاد لهم ولاجل بلوغ هذه الاماني لم يظهروا لدير القمر شيئاً من العداء في بادىء الامر بل جاروها على ميلها السلمي محافظين بسرهم على ما كتموهُ لها من الشرّ لحين دنوّ الساعة حتى لا تفطن لما يبطنون فتأخذ بطرق الوقاية لنفسها . واستمرُّوا على ذلك لغاية شهر ايار (مايو) سنة ١٨٦٠

وفي نهار الجمعة الواقع في اول حزيران « يونيو » صباحاً بينما كان نصارى دير القمر ناعمي البال لا يحسبون للشرّ حساباً خرجوا من بيوتهم

لمعاطاة اشغالهم عَلَى عادتهم فرأوا بلدتهم محاطة بجموع الدروز من كل جهاتها يقودهم مشايخ عائلتي ابي نكد وعماد وعدد الدروز ٢٠٠٠ رجل فدهشوا لذلك اذ لم يكن بحسبانهم ان الدروز تفاجئهم هذه المفاجأة حال كونهم عَلَى سلام معهم وفي البلدة عدد وافر من جند الحكومة المنظمة وظلوا يحسبون الامر سحابة صيف لظنهم بأن الجند تفرق جموع الدروز وتحلها عن البلدة . ولا عجب فانهم كانوا قد اطلعوا عَلَى امر خورشيد باشا والي بيروت وقتئذٍ الى حاكم دير القمر يمتدح بهِ سلوك نصارى دير القمر السلمي غاية الامتداح ويؤمنهم من اعدائهم ويعدهم بعضدهم والمدافعة عنهم بقوة السلاح اذا جدَّ ما يخشونهُ او حدث ما يكدر راحتهم . الاَّ انهم ما لبثوا ان تاكدوا الغدر حيث ان تلك الجنود لبثت آويةً بقلعتها كانهُ ليس من امر وحاكم البلدة غير مهتم بشيءٍ فالتزم النصارى اذ ذاك ان يدافعوا عن انفسهم بانفسهم مع ما هم عليهِ من عدم الاستعداد فذهب القادرون منهم إِلَى اسلحتهم وخرجوا لدفع هجوم اعدائهم وهكذا اشتبك القتال والدروز يهجمون والنصارى يصدونهم بعزم شديد محامين عن ديارهم وذراريهم إِلَى ما بعد الغروب بساعتين حيث عاد الدروز عن المدينة وكفوا عن الهجوم وبات النصارى يحافظون عَلَى مدينتهم خيفة ان يدخلها الدروز غيلة

وفي خلال القتال قصد البعض الالتجاء إِلَى الحاكم في السراي فوجدوا الابواب موصدة فأَخذوا يقرعونها مستجيرين بمن داخلها فلم يكن من يجيب واخيرًا جنح بعض المتقدمين في السن إِلَى قاضي الحاجات وهو الاصفر الزنان فسمع بهِ الحرس من خلال الباب فسمحوا لمن بذلهُ

بالدخول وهكذا صار لايدخل السراي احد الاَّ من جعل الرشوة الكثيرة ممهدة سبيلهُ اما النساء فكنَّ بذلك النهار باكيات نائحات مستجيرات مستغيثات ولكن اين من يجير او من يغيث . وقد كانت خسائر النصارى في ذلك اليوم ١٧ قتيلاً وبعض الجرحى اما خسائر الدروز فاكثر من مائة منهم ١٧ عسكريًّا كانوا باللباس العادي يساعدون الدروز

وفي غد اليوم التالي عاد الدروز إِلَى القتال وهجموا عَلَى البلدة ليضطروا النصارى إِلَى الخروج لقتالهم وهكذا اشتبك القتال فخرج القوم للدفاع واما كبراء النصارى واعيانهم فتقدموا لحاكم البلدة وضباط العساكر سائلينهم بالكتابة واللسان المحاماة عنهم ضد جيوش الدروز عملاً بوعد الوالي خورشيد باشا او يعطونهم ذخيرة وهم يحامون عن انفسهم واموالهم فأَجابهم الحاكم والضباط باننا لم نبلغ او نؤمر البتة بالمحاماة عنكم او باعطائكم ميرة فلذلك لا رجاء لكم بمساعدتنا . انما ننصحكم اذا اردتم السلامة ان تتوجهوا إِلَى سعيد بك جنبلاط وبشير بك ابي نكد « وكانا من حكام الدروز في الجبل » وتلقون بين ايديهما اسلحة النصارى وهما يكفان الشرّ عنكم . فعند ما رأَى هؤُلاء الاعيان ما كان قصدوا الالتجاء إِلَى اعدائهم لعلَّ في ذلك خلاصاً لهم فخرروا اعراضاً إِلَى سعيد بك جنبلاط الذي كان وقتئذٍ في بيت الدين عند عبد السلام بك امير الالـيے العساكر المنظمة واخبروهُ بامرهم وانهم سيسيرون اليهِ ويكونون تحت اوامرهِ بشرط ان يفرج كربتهم وينقذهم من المخاطر المحيطة بهم ووضعوا هٰذَا العرض مفتوحاً عند الحاكم ليرسلهُ

اليهِ . فتناول الحاكم العرض المذكور ووضعهُ ضمن تحرير منهُ مع نفرين من العسكر إلَى صاحبهِ وبعد وقت قصير ورد الجواب من سعيد بك جنبلاط فحواهُ انهُ يجب الاجتماع عَلَى بعض وجهاء النصارى للمداولة في الامور الحاصلة فلبوا طلبهُ وحصلت جلسة دار الحديث فيها عَلَى وجوب خلود النصارى إلَى السكينة والاطمئنان وتعهد البك بجلاء الدروز وما ارفضت الجلسة الاَّ وصدرت الاوامر للدروز بالانجلاء عن دير القمر فانجلوا عنها ولكن يومًا واحدًا فقط وبعدهُ عادوا للتجمع

ونهار الاحد الواقع في ١٥ حزيران « يونيو » احاطت الدروز بدير القمر احاطة الهالة بالقمر فانقطع كل اتصال بينها وبين الخارج ونهبت البيوت الَّتي في ظاهرها وحرقت وقتل اثنان احدهما اسمهُ خليل دَبر والآخر اسعد الحلبي وقد قدمت شكوى للحكومة فيما هو جارٍ واخطرت بالاخطار العظيمة الَّتي تنجم عنهُ فاصدرت امرها بان لايخرج احد من الاهالي خارج البلدة او يقترب من البيوت الَّتي بظاهرها ومن يخالف هذه الاوامر وألحق بهِ ضرر فهي غير مسألولة عنهُ كما انها في الوقت ذاتهِ حظرت عَلَى الدروز الغرباء دخول البلدة فاطمأنت قلوب الناس نوعًا الاَّ انهُ ما جاءت ظهيرة هٰذَا اليوم نفسهِ حتى اظهر الدروز عدم الامتثال لامر الحكومة المذكورة حيث دخل البلدة كلٌّ من سليم بك وشاهين بك ابي نكد مع عدد غفير من الدروز وتوجهوا إلَى السرايـي وعوضًا عن ان يصادفوا من الحكومة وضباط العساكر الصد والمؤاخذة قوبلوا بالبشاشة والترحاب والثغور الباسمة . وبعد وقت قصير ايضًا دخل جمهور آخر من الدروز وتفرَّق في البلدة واخذ يهين النصارى

رجالاً ونساء ويحول بينهم وبين السراي عند ما رأى فيهم الميل إلى دخولها وقد ادعى الجمهور الاول بان دخولهُ المدينة كان لمنع الجمهور الثاني عن دخولها . وما ذلك الاَّ مواربة ظاهرة طيها شرٌّ كامن . وقد تسبب عن هذه الحوادث اضطراب افكار النصارى وقلقهم وسلب راحتهم

وعند غروب شمس ذلك اليوم اتى البلدة طاهر باشا كومندان عسكر بيروت ومعهُ اربعمائة جندي منظم وصحبهُ سعيد بك جنبلاط وعلي بك حماده وجمهورٌ غفيرٌ من الدروز مسلحين بالسلاح الكامل . وقبل ان يدخل طاهر باشا البلدة حصل بينهُ وبين من معهُ مدازلة استمرت ساعة من الزمن تقريباً حضرها بشير بك ابي نكد ايضاً . وبقي ما دار بها مكتوماً عن النصارى الاَّ ان ما حدث بعدها دلَّ على انها كانت لتحكيم الشرك على المسيحيين واغتيالهم . وبعد ارفضاض الجلسة تقدم طاهر باشا ومن معهُ إلى البلدة فلما اقترب منها خرج اعيان النصارى لاستقبالهِ والترحيب بهِ . واول شيء قالهُ لهم انهُ تكدر جدًّا من سلوكهم وعدَّهم من الخائنين الذين يعملون على خراب الدولة واهاجة الفتن بغية ادخال الدولة الفرنساويَّة إلى لبنان . فتذلل القوم لديهِ وبرهنوا لهُ على طاعتهم وامانتهم فتظاهر بالاقتناع بعد ذلك الغضب وقال انهُ يأسف جدًّا مما أُلحق بهم وان السبب الوحيد الذي اضطرهُ ان يأتي لاغاثتهم هو لانهم رعايا امناء للباب العالي ولهم الحق الاكبر بان تحمى ذمارهم ومِنْ واجبات الحكومة ان ترفع العداء عنهم وانهُ هو ضامِن لهم حياتهم واموالهم وراحتهم و بعد ان سكن خواطرهم

وحملهم على الطمأنينة صرفهم من حضرتهِ مكرماً مواعيدهُ وشخص إلى بيت الدين « مركز حكومة لبنان » القريبة من ديرالقمر ولاجل زيادة اطمئنانهم ترك عندهم الجنود الذين كانوا معهُ

وفي الغد بعث طاهر باشا المشار اليهِ إلى ديرالقمر يستدعي وجوه النصارى ليوافوهُ إلى بيت الدين فساروا اليهِ على عجل فتلقاهم بغاية الترحيب والبشاشة مجدداً لهم المواعيد بصيانتهم وضمان حياتهم واموالهم وراحتهم ولكنهُ طلب منهم تعهداً مكتوباً على انفسهم بعدم اتيانهم ما يخلُّ بالراحة وان يكونوا طوع ارادتهِ ويمتنعوا عن حمل السلاح في البلدة فحرّروا لهُ التعهد المطلوب وامضوهُ جميعاً وقدموهُ لهُ وطلبوا منهُ بالمثل ان يتعهد لهم كتابةً بضمان امنيتهم وما وعدهم فأبى عليهم ذلك وقال ان كلمتي هي تعهد كافٍ وان حكومة دير القمر وقوّاد العساكر يكونون تحت المسأُولية الشديدة الكليَّة اذا تقاعسوا عن السهر على راحتكم فاطمئنوا واذهبوا إلى اشغالكم واعمالكم واعلموا اهل البلدة بما تعهدت لكم بهِ لكن ليكن معلوماً عندكم ان الحكومة لا تكون مسأُولة عن الضرر الذي يصيب من يخرج منكم خارج البلدة « وما غايتهُ بهذه الجملة الاخيرة الاَّ منع المهاجرة كي يبقى الكل داخل الشرك خرافاً للذبح لا يفلت منهم فالت » فركنوا إلى كلامهِ واطمأنت قلوبهم بهِ وعادوا إلى البلدة وهم يظنون بلوغ المنى . وحدث في ذلك اليوم ان بعض اصدقاء سعيد بك جنبلاط من النصارى توجهوا بعيالهم قاصدين المختارة محل اقامة البك مخفورين ببعض رجالهِ فعند مرورهم بالقرب مِنْ بيت الدين امر طاهر باشا احد ضباطهِ ان يمنعهم من المرور وان

يرجعهم إلى بيوتهم منكرًا عليهم ترك البلدة وان يعيد لهم التطمين والتأمين ففعل ولكن اذا طلب اولئك الرجال مداومة البير رفض طلبهم واستعمل هذا الضابط القوة في ارجاعهم

وفي الغد « الثلاثاء » سابع عشر حزيران « يونيو » سنة ١٨٦٠ ذهب طاهر باشا من بيت الدين إلى دير القمر واحضر الاهالي لديه وجدد لهم التأمينات والتطمينات والتعهدات التي ابداها لهم في الاجتماع السابق فشكروه مظهرين ثقتهم به واتكالهم على حماية الحكومة لانهم من اولاد الدولة وعبيدها الامناء

وبعد هنيهة علموا بانهُ (اي طاهر باشا) مزمع على السفر إلى بيروت تاركًا اياهم محاطين بالاعداء من كل جانب ومحظورًا عليهم الخروج خارج البلدة لجلب القوت وطلب الرزق وعرضوا عليه واقعة حالهم فأجابهم بما انكم ابناء الدولة ورعيتها فانا مهتم بشأنكم فلا اتركم الآ وكلما يأول لراحتكم موجود عندكم فكونوا مطمئنين فأرضاهم جوابهُ وخرجوا من حضرتهِ داعين شاكرين

وبعد ذلك بيومين حضر من صيدا الى دير القمر خمسمائة عسكري منظم مع مدفعين وانضموا إلى القوة العسكرية الموجودة فصارت مؤلفة من تسعمائة جندي جزء منهم في بيت الدين والباقي في دير القمر

وبعد وصول هذه القوات اتى طاهر باشا دير القمر حيث كان ذهب إلى مقره بيت الدين واستدعى اعيانها وجدد لهم مواعيدهُ وتعهداتهِ وقال ينبغي ان تكونوا بغاية الاطمئنان بوجود الجنود السلطانية بينكم واني اصدرت الاوامر اللازمة للضباط ليحاموا عنكم

وقت الضرورة وعليهِ فلا يلزمكم ويلزم الاهالي الاَّ الاهتمام باشغالهم واعمالهم واسباب معاشهم فقط . وبعد هٰذَا الحديث طلب منادياً واطلقهُ ينادي في كل البلدة بوجود الامان والطمأنينة وان لا يلتفت الناس لشيءٍ الاَّ لاشغالهم ومصالحهم فقط فسكن روع الناس واطمأنت نفوسهم وذهب ما كان عندهم من الخوف واهملوا وسائط التوقي

وفي الوقت نفسهِ امر طاهر باشا حاكم البلدة ورؤساء العساكر بالانتباه واليقظة وان لا يدعوا البتة درزيًّا مسلحًا يدخل البلدة . ورتب حرّاسًا وخفراء يطوفون ليلاً ونهاراً حول البلدة . وامر رؤساء العسكر ابدًا بجلب الحنطة لعوز الاهالي والسعي في كلما فيهِ راحتهم وبعد ان اكمل دور اعمالهِ وبات النصارى في الحالة الَّتي يريدها هو ورئيسهُ احمد باشا (اي وجودهم في قفص حديدي لا مخرج لهم منهُ ابدًا) سافر مودعًا بشكر الاهالي وثنائهم

وبعد سفر طاهر باشا بقليل عاد الدروز واحاطوا بالبلدة احاطة السوار بالمعصم واخذوا كل المؤونة الواردة اليها وقد خرج ثلاثة من النصارى اصحاب العيال لكرم ازاء البلدة ليحضروا منهُ شيئًا لاجل قوت عيالهم فقتلوا للحال . وقد اعرض النصارى واقعة الحال لحكومة البلدة والضباط واعربوا لها عن حاجة البلدة للمؤونة وعن تعرُّض الدروز لذلك فكان الجواب تشديد منع الخروج من البلدة واعلانها عدم مسؤوليتها عمن يخالف هٰذَا الامر ولو اصابهُ اي ضرر كان فرضخ النصارى لذلك محتملين الشدة واثقال العوز الى المؤونة واستمرَّ الحال عَلَى ذلك حتى نهار الاربعاء في ٢٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠

وكان الدروز في الليلة السابقة يستعدون للهجوم و يعطون الاشارات بعضهم الى بعض فرأى النصارى تلك الاشارات وفهمها بعضهم ولكن القسم الاكبر ظنها من قبيل الفرح والالعاب النارية

وفي ذلك النهار اي ٢٠ حزيران (يونيو) اخذ الدروز يدخلون البلدة فرقًا فرقًا من كل ناحية ومعهم الاسلحة مدعين بأنهم آتين من قبل المقاطجي (مدير المقاطعة) للمحافظة على الاهالي ومنع كل أذية عنهم الّا ان النصارى لما رأوهم على هذه الصفة توجسوا شرًّا ولاسيما عند ما نظروا ان العسكر لم يبدِ لهم أدنى معارضة خلافًا لما امر بهِ طاهر باشا قبل سفرهِ فأعرضوا الامر لحاكم البلدة والضباط فهؤلاء حالاً نهضوا وطافوا في البلدة منادين بالامان وان لا خوف على النصارى ابدًا محظرين عليهم (اي على النصارى) حمل السلاح و بينما المنادي ينادي والحاكم والضباط في طوافهم سمع بغتة صوت الطبل فدخل بعض العسكر السراي وابتدأ الدروز ومعهم البعض الآخر من العسكر ينهب وسلب كلما وصلت اليهِ ايديهم بدون معارض وعند غروب الشمس قتلوا نصرانيًّا اسمهُ حبيب الباحوط امام باب السراي بحضور رجال الخفر و بعد ذلك بوقتٍ قصير قتلوا راهبين في ذلك المحل بعينهِ . واستمرَّ الدروز ذلك الليل بطولهِ طائفين بالبلدة رجالاً ونساءً على انوار المشاعل ناهبين سالبين والنصارى بحيرة وارتباك لا يدرون ماذا يفعلون فان دافعوا عن انفسهم خافوا انقلاب الحكومة عليهم بمخالفتهم ما تعهدوا لها بهِ وان صبروا على البلوى واتكلوا على الحكومة فهي مقاضية متقاعسة والمسألة مسألة اموال وارواح .

وكانت الحكومة قبل ذلك النهار قد جمعت كل ما امكن لها جمعهُ من سلاح النصارى كما تقدم

وفي الغد وهو الخميس ٢١ حزيران (يونيو) وصل دير القمر جماهير كثيرة من الدروز وافدين من جهات لبنان ودخلوها بأسلحتهم بدون ان يصادفوا من الحكومة اقل معارضة . ولما رأى ذلك النصارى تأكدوا اشتداد الحال عليهم و بلوغهم شفا هاوية الملاك والدمار وانهُ لم يبقَ لهم من طريقة لنجاتهم بحسب ما ظنوا الاَّ الالتجاء للسرايـا والاحتماء بكنف الحاكم والعساكر الموجودين فيها فلجأ بعضهم اليها آخذين معهم ما تيسر لهم اخذهُ من الامتعة الَّتي امكنهم اخفاءها من النهب فتلقاهم العسكر بالقبول فظنوا انهم بلغوا دار الامان . وقد لجأ جانب منهم الى بيت الدين فاستقبلهم قائمقام العساكر المنتظمة عَلَى الرحب والسعة و بقي بعضهم مختفياً بالبلدة

ومن بعد ما نهب الدروز البلدة بغير ان يروا صادًّا او مانعاً يمنعهم عن شرهم اخذوا بالتفتيش عَلَى الانفس فقتلوا كل من صادفوهُ من الرجال والاولاد حتى و بعض النساء ايضاً وقد أجروا من الفظائع والاعمال البربريَّة ما تقشعرُّ منهُ الابدان لانهم كانوا يذبحون الاولاد في احضان امهاتهم والرجال عَلَى ركب نسائهم ويحرقون كثيرات من الناس وهنَّ احياء في الطرق والشوارع متفاخرين بتلك الاعمال الشنيعة متهللين متنافسين وكانوا يذرون رماد اولئك المساكين في الفضاء ليصعد الى طبقات السماء مع الرياح ويشهد للملائكتها كما شهدت دماؤهم لاهل الارض بما عوملوا بهِ من الوحشيَّة والظلم

ولما انتهوا من البلدة ولم يبق لهم بها من يضحونهُ عَلَى مذبح شرورهم تجمهروا وقصدوا السراي ليذبحوا اللاجئين اليها من النصارى وكانوا نيف وثمانمائة رجل وجمهورٌ غفيرٌ من النساء والاولاد فنظر اليهم النصارى وتوقعوا الشرّ ودنوّ الاجل لانهم باتوا داخل قنص من حديد لاشيء من اسباب الدفاع لديهم بعد ان اخذت اسلحتهم منهم الاَّ انهم كانوا يعللون النفس بالسلامة و يدفعون تلك المخاوف بتذكر مواعيد طاهر باشا وضماناتهِ واعتقادهم بانهم في حمى الحكومة فلا يجسر الدروز عَلَى الهجوم عليهم لحرمتها . الاَّ ان كل هذه الاماني المعقولة زالت من اولئك المساكين بوقتٍ قصير وانقطع كل رجاء منهم حيث لما كمل تجمع الدروز امام السراي او القلعة تقدم احد الجنود (باشارة من رؤسائهِ) وفتح الابواب امام الحاكم وقائمقام العساكر وكثيرين من الضباط فدخل الدروز للحال وانقضوا عَلَى فريستهم انقضاض الكواسر وبأَيديهم الفؤوس مشهورة والسيوف مسلولة والحراب مجرَّدة واخذوا بقطع الرقاب وطعن الصدور و بتر الاعضاء وارتكاب الشرّ والتفنن في الوحشيَّة والعسكر يرى مقهقهًا ضاحكًا عَلَى اولئك المساكين الذين راحوا ضحيَّة الخيانة والغدر . وقد تفنن الدروز بشرهم تفننًا غريبًا فعذبوا الابرياء بأَنواع العذاب المرّ فكان بعضهم يقطع الرأْس و يبتر الاعضاء عضوًا عضوًا ولا يبالي بأَنين المصاب و آلامهِ و بعضهم يقطعون اصابع النصراني مخاطبينهُ خطاب الجمع قائلين بهذه الاصابع كنتم تكتبون طالبين المساعدة والصيانة فخذوا الآن جزاء ما جنيتم واجوبة ما كتبتم ثمَّ لا يلبثون ان يهدروا دمهُ

قائلين تغسل بهِ وتنم آخر نعيم بدنياك وبعضهم كانوا يصبون على راس النصراني ماءً غالياً اتوا بهِ من العسكر ويقولون (بل بهِ وها السيف من بنك بعدهُ) ويقطعون رأسهُ بعد قطع آذانهِ وانفهِ وتشويه خلقتهِ وبعضهم يأتون بالولد ويذبحونهُ بحجر والدتهِ وبعضهم يجرُّون الزوج ويجندلونهُ على ركبة امرأتهِ وقد جاءوا غير ذلك من الاعمال القاسية البربريَّة ممَّا يضيق لوصفهِ الصدر ويفرغ من تلاوتهِ الدبر . ومن امثلة ذلك ان امرأة فارس الحداد ذبح زوجها على حجرها وبقي طفلها الرضيع على ذراعيها فخافت عليهِ والتمست الاستجارة والعفو عنهُ فما كان جواب قداها الاَّ اخذ طفلها من يدها وذبحهُ امام عينيها . واخرى كانت حاضنة طفلها الرضيع فأُخذ منها وصراخهُ يجرح الفؤاد واستجارتهُ بأُمهِ تلين الجماد ودُفع في الفضاء واستلقي بالسيف فقدَّ شطرين ثم دفعهُ لوالدتهِ المسكينة وقيل لها ها قد سكتناهُ لكِ فالوالدة تأثرت من روع العمل وقضت نحبها في الحال . واخرى هي زوجة عبد الله ابي نجم ذبح اولاً زوجها على ركبتها فاستغاثت واستجارت وكان نتيجة عملها ان جرَّ اولادها الثلاثة وذبحوا على ركبتها واحداً بعد واحد . واخرى اذ رأت ابنها ذبح امامها فقدت رشدها فأتوا بأخشاب ووضعوها عليها وحرقوها حيَّة وقد قتلوا كثيرات من النساء والاولاد . واستمرَّ الدروز على عملهم هذا حتى لم يبقَ امامهم نصراني ظاهر فأخذوا يفتشون في جهات القلعة حتى لا يبقى من يفلت من ايديهم وكان العسكر يساعدونهم على ذلك كما انهُ اثناء دخول الدروز وهذا عملهم كان اذا رام نصراني الالتجاء إلى العسكر والدخول بينهم الاحتماء بهم من وجه مطارديهِ او

اختفاء من اعدائهِ يدفعونهُ بالحراب . وقد اماتوا بعضاً بطعن حرابهم وتمكن اثنان من النصارى من الفرار إلَى سطوح السراي فعلم العساكر بهم فصعدوا اليهم وطرحوهم إلَى الاسفل عَلَى البلاط فما وصلوا الارض الاَّ وقد قضي عليهم و بعد ان كمل ذبح المختبئين عاد الدروز ففتشوا بين النساء الباقيات فعثروا ببعض الرجال فأماتوهم شرّميتة واستمرُّوا بعملهم هٰذا كل ذلك اليوم وقد نهبوا جميع ما جاء بهِ النصارى إلَى السراي من متاع ومصاغ ودراهم وشاركهم العسكر بذلك . هنا يقف القلم ونترك الشرح للقارئ

كل هذه الحوادث جرت واعين الحاكم وقائمقام العساكر وضباطهم وجميع العساكر ناظرة ولم يكن من يتأثر او يبدي اقل شفقة وكانت ضجّات اولئك المساكين واستجاراتهم ونحيب نسائهم وعويل اولادهم لاتؤثر شيئاً في اولئك الذين تعهدوا لهم بالحماية ودفع الممات عنهم بل انهم عوضاً عن اغاثتهم والنظر اليهم كانوا يشددون قلوب مفترسيهم ويحضونهم عَلَى العمل و يبدون المسرة والفرح عند ما يرون بحيرة الدماء الَّتي تكوَّنت في ساحة السراي تزداد تدفقاً وارتفاعاً وتلك الذبائح ذبائح الظلم والعداء والخيانة والغدر والجبن تسبح بها شاكية امرها لباريها . وقد كان منظر السراي عند انتهاء الحادثة مخيفاً هائلاً يدل عَلَى توحش الاتراك والدروز وخيانتهم وتبرؤ الانسانيَّة منهم . وبعد ان أنهى الدروز عملهم داخل السراي او القلعة خرجوا منها تاركينها تغمر جسوم القتلى فودعهم الحاكم والضباط والعسكر باشارات الرضى والشكر وقد خرج من بقي بها من نساء النصارى باكيات نائحات

نادبات عرايا حنايا مكشوفات الراس تايهات في الجبال والقفار متأسفات متحسرات على من فقدنَ متأثرات من روع المناظر ٱلّتي نظرنها والاهوال ٱلّتي جرت عليهنّ . ويالله يا لله من هٰذا الهول وهٰذا المصاب العظيم

وقد ذهب الدروز من دير القمر بعد ان تركوها خرابًا تبكي مجدها وما كانت عليهِ بالامس اذ لم يبقَ بها من معالم عزّها الّا بقيّة قليلة واتوا بيت الدين فدخلوا سراياها وذبحوا جميع النصارى الذين كانوا قد لجأوا اليها مع مائة وتسعة اشخاص آخرين من قرى بيت الدين والمعاصر بعد ان نهبوا تلك القرى ولم يبقوا على شيءٍ فيها وحرقوها امام اعين القائمقام والعسكر فكان لهيبها يتأجج ودخانها يتصاعد حتى حجب الشمس وكان منظرها المخيف يصل مسافة بعيدة فيسرّ الدروز ويكدر النصارى وكل هٰذا جرى وهيئة الحكومة المحليّة راضية عنهُ وبعض ايدي عاملها مشتركة بهِ وكل ما أنعم بهِ العسكر من الشفقة على النصارى في حادثة بيت الدين هو تسليمهم النصراني اللاجئ اليهم لسيف الدرزي . ومن غرائب الخيانات ان احد الضباط كان لهُ خادم نصراني خدمهُ بأمانة مدة طويلة ولكي يجازيهُ بالخير على خدمتهِ النصوحة لهُ سلمهُ بيدهِ للموت فأماتهُ الدروز امام اعين سيدهِ شرّ ميتة وسيدهُ يقهقه ويضحك . ولم يروَ إلى الآن ان احد البهائم او الوحوش اتى مثل هٰذا الشرّ الهائل

ومن بعد ما أنهى الدروز مذابح بيت الدين وفتكوا ونهبوا وحرقوا القرى المجاورة لها رجعوا ثانيةً إلى دير القمر للفتك بدير الرهبان الذي

كان باقياً فيها والايقاع ببيت خليل الجاويش احد اعيان النصارى وقتل المعتصمين بهِ ونهب اموالهم فهجموا على دير الرهبان وتمكنوا منهُ ودخلوهُ وقتلوا جميع الرهبان الموجودين فيهِ وقطعوهم اربًا اربًا ثم اخذوا بنهبهِ فلم يبقوا بهِ شيئًا وكان فيهِ كثير من اموال الاهالي وامتعتهم الغالية . ثم دخلوا كنيستهُ وخربوا هياكلهُ ومزقوا صورهُ واهانوا اوانيهِ وسحقوا اجراسهُ وعطلوا قبابهُ ثم ألقوا النار فيهِ وفي البلدة . وقد كان عدد من قتل في حوادث دير القمر وبيت الدين والقرى الَّتي حولهما إِلَى ذلك الوقت نيف والف وخمسمائة رجل خلا النساء والاولاد والبنات والاطفال ولم يبقَ للدروز ما يفتكون بهِ الَّا بيت الجاويش وكان هٰذا البيت متسع النطاق متين البنيان حصينًا وصاحبهُ من ذوي الوجاهة والاقتدار ولما دخل الدروز المدينة قبل حادثة القلعة كما مرَّ بك لجأَ اليهِ نحو من ثلاثمائة وخمسين رجلاً من النصارى بأَموالهم واسلحتهم اذ ابوا الدخول إِلَى السراي لانهم خافوا الغدر من العسكر بداعي ما رأَوهُ من اهمالهم وعدم اكتراثهم بحماية المسيحيين بحسب ما تعهد لهم طاهر باشا وتحالف هؤُلاء الرجال على الذود عن انفسهم واموالهم وعيالهم إِلَى آخر نسمة من حياتهم . وقد هابهم الدروز بادئ الامر ولم يهاجموهم خيفة الفشل فاعتمدوا على الفتك اولاً بمن سهل عليهم الفتك بهم نظير الذين في قلعتي دير القمر وبيت الدين والقرى حولهما كما تقدم القول ومن ثمَّ بقي ذلك البيت منفردًا فسهل عليهم الغلبة عليهِ لان جميع النصارى خارجهُ صاروا طعامًا لشفار السيوف وقراهم ودورهم باتت مطمعًا للنار وحملوا عَلَى البيت المذكور حملات هائلة

فصدُّوا واستمرُّوا ينازلونهُ فلنتركهم هنا الآن ولنذكر للقارىء ما صار في اثناء ذلك

ان دخول الدروز لدير القمر بالحالة التي ذكرناها ووقوع المسيحيين في تلك المخاطر المار ذكرها بلغ بيروت فأعرضت عنهُ البطركخانات ووكلاء الدول العظيمة إلَى واليها فالوالي لم يسعهُ الاَّ ان ركب قاصدًا بيت الدين بدعوى انهُ يتلافى الامر ويكف العداء عن النصارى فسافر في ٢١ حزيران « يونيو » من بيروت إلَى محل قصدهِ (وكانت تدبيرات طاهر باشا في ذلك اليوم آخذة مفعولها والمذابح قائمة على قدم وساق في دير القمر وبيت الدين في حمى العساكر وفي القرى المجاورة وفي دير الرهبان) فوصل مساء ذلك اليوم إلَى بيت الدين وكان امرها منتهيًا والدروز في دير القمر ينازلون بيت الجاويش فبات بها تلك الليلة مستريحًا من مشقة السفر واتعابهِ وثاني يوم توجه إلَى دير القمر لينظر في امورها ويصلح احوالها بحسب زعمهِ وكان الدروز ينازلون بيت الجاويش و يشددون عليهِ فلم يتعرض لامرهم

اما الذين كانوا في بيت الجاويش فلما رأوا ما حاق بهم من الخراب والحريق وكثرة جموع الدروز عليهم وانهُ لا ناصر لهم وعددهم كبير وليس لهم من المؤونة ما يجعلهم يتابعون الدفاع تشاوروا واقرُّوا عَلَى اتخاذ طرق سلميَّة مع الدروز يكون من ورائها سلامتهم واخراجهم من الخطر الذي صاروا اليهِ فراسلوا بذلك بشير بك ابي نكد احد كبراء الدروز واعيانهم معرضين عليهِ رغبتهم في كفّ القتال وحجب الدماء من الجانبين و يعرضون عليهِ افتداء انفسهم بكل ما يملكونهُ وما

هو موجود في البيت من الاموال وكان شيئاً كثيراً فقبل منهم بذلك ووعدهم باجابة طلبهم الاَّ انهُ ما لبث ذلك الترتيب ان نقض وما وعدوا بهِ استحال إلَى ضدهِ وتفصيل الامر هو ان الدروز لما رأوا بأن ما أُعرض عَلَى بشير بك ابي نكّد لا يوافق مقاصدهم وان المال في كل حال لهم واذا جروا عَلَى وعد بشير بك يسلم من النصارى ٢٥٠ رجلاً جنحوا إلَى نقض الوعد بطريقة تمكنهم من القوم براحة ولا تكلفهم خسارة رجل وذلك ان احد امراء الدروز من آل ارسلان اتى قصد ان ينجي خليل الجاويش وعائلتهُ لما بينهما من الود والحب فأتى البيت فأنس بهِ النصارى سيما لما رأوهُ عاملاً عَلَى خلاص زعيمهم فظنوا بأن ذلك من مقدمات طلبهم الذي أُجيب الاَّ انهُ ما أُخرج خليل الجاويش وعائلتهُ من البيت الاَّ واغتنم الدروز فرصة اطمئنان النصارى واركانهم حتى هجموا عَلَى البيت هجمة واحدة خفيفة قيل انها كانت باشارة من الارسلاني ودخلوا البيت واعملوا السيوف بمن فيهِ وما طال الوقت حتى قتلوهم ثم انتهبوا تلك الاموال الغزيرة واوقدوا النار بارجاء البيت . ثم أضحى البيت ماكلاً للنار نظير بقيَّة بيوت البلدة وهكذا انتهى امر دير القمر وصارت رماداً بعد ان كانت بالامس وما قبلهُ جنة لبنان ومركز قواهُ وتجارتهِ وغناهُ

وبعد ان تمت هذه المذبحة الفظيعة الهائلة اطلق الوالي المنادي ينادي بالامان . ولكن لمن ؟؟ وامر الدروز بترك البلدة وقتئذٍ مظهراً التشديدات الكليَّة فأجابوا النداء حالاً ممتثلين الامر غير مراجعين ولا مخالفين وما ذلك الاَّ لان المدينة امست قاعاً صفصفاً ولم يبقَ من

غرض لهم بها وصار غرضهم سواها فجلوا عنها مظهرين الطاعة لاوامر الوالي وهو مظهر الرضاء من رضوخهم لهُ . وبعد انجلاء الدروز اطلق حضرتهُ مدفعًا تاكيدًا لحلول الامان وكف التعديات ظانًّا انهُ يطمئن سكان تلك الخرابات الذين تلاشوا عن آخرهم واضحوا رممًا مطروحة في الشوارع والازقة والخرب وسراي دير القمر وبيت الدين وهكذا انصرف عن دير القمر مفتخرًا بايجادهِ الامن ولكن للاموات

وفي ٢٣ حزيران (يونيو) اضرم الدروز النار في منزل الامير قاسم شهاب الكائن في بيت الدين امام سراي الوالي ولم يمانعهم احد في ذلك

اما رؤساء الدروز الذين حضروا وقائع دير القمر هذه ورتبوا امرها فكانوا سعيد بك جنبلاط والمشايخ العمادين ومشايخ وبكوات عائلة ابي نكد وجميع آل حماده وغيرهم

وبقيت جثث القتلى في محل مذابحها مدة للطيور ووحوش البريَّة اذ لم يكن من يدفنها او يواريها التراب واهتم اهل الدير بجمع عظام موتاهم بعد الحوادث المذكورة ودفنوها في مكان بالدير ويسميها البعض عظام الشهداء

وقد لجأ الماربون والنساء والاطفال بعد معاينتهم ما جرى إلى الشطوط البحريَّة فنظر اخوانهم وقناصل الدول الاجنبيَّة لحالهم وعاملوهم بالانسانيَّة والحسنى وسداد عوزهم بما تيسر

فصل

في مذابح المتن والساحل

ان واقعة بيت مري الاولى ٱلَّتي حدثت في ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٨٥٩ وتجدد بسببها تنافر قلوب الاهالي ونتج منها حريق ثلاث قرى للنصارى وهي قريتي راس الحرف · ودير الحرف · وقرية اخرى بيد الشيخ يوسف عبد الملك كما تقدم لنا القول كانت سبباً لدخول ارباب المقاصد والغايات من غير الاهالي في ميدان المباراة والمناظرة سعياً وراء ما يبتغون وسبيلاً لاجراء تدبيرات احمد باشا ومن جاراهُ من الحكام عَلَى تنفيذها كخورشيد باشا وغيره

ولا ريب في ان عدم حزم خورشيد باشا وميله عن جانب العدالة والانصاف باهمالهِ قصاص المعتدين في الشرّ الاولُ روَّج تلك السياسة ٱلَّتي قصدها احمد باشا منذ فتحت لهُ هذه الثغرة الوطنيَّة ورام ان يتخذها موصلاً لمقاصدهِ السيئة · ولسوء الحظ قد جاءت كل الاحوال موصلة لذلك السبيل الرديء وداعيةً لسفك دماء الالوف من رعايا السلطان الامناء ونهب اموالهم وخراب ديارهم

ولقد كان كثيرون من عقلاء اهالي لبنان وغيرهِ من مدن سوريا وارجائها يرون سوء الحالة ويحسبون لعواقبها المشومة حساباً ويسعون جهدهم في تلافي الامور · الاَّ ان قلتهم حالت دون منع البلاء

ولكنها نفعت في جهات كثيرة وترتب عليها حجب الدماء ومنع الدمار

ثم ان عدم قصاص المعتدين في حادثة بيت مري الاولى شجع الدروز وحذر النصارى ولما ذهب فصل الشتاء ووافى الربيع ورأى اولو السكينة آمالهم خائبة من جهة الامن واستقرار الراحة وان مقدمات الشرّ عَلَى اتساع ولهيبهُ عَلَى ازدياد وقد اتصل إِلَى جهات كثيرة وان المعتدين يزدادون تمرداً وعتوًّا بما ينالونهُ من المساعدات السريَّة والتنشيطات القويَّة حتى باتت الطرقات مقطوعة عَلَى النصارى وصاروا في خطر وتعطلت اعمالهم وتلفت مزروعاتهم ولم يبقَ لهم للمعاش سبيل وان الحالة صارت اردأ مما كانت عليهِ في الخريف الماضي اعرضوا لخورشيد باشا الامور الحاصلة ونبهوهُ إِلَى سوء المصير فأظهر الاهتمام وابطن السرور وصرف القوم عَلَى نيَّة التبصر بالامر وما ابدى بالفعل الاَّ الاغضاء وما كان الشرّ الاَّ برضاهُ وتدبيرهِ

ولما رأى النصارى حالتهم التعيسة وان شكواهم ذهبت سدًى وكلما يجري حولهم وما يرونهُ بأعينهم يدلُّ على احداق الخطر بهم اندفعوا بسنة حفظ البقاء والحرص على الحياة والمقتضى إِلَى الاعتناء بشؤونهم لدفع البلاء عنهم فرأوا ان قوَّتهم لا تعادل قوة الدروز الساكنين بينهم والمحيطين بهم وان يوم البلاء قريب فاستنجدوا باخوانهم من سكان كسروان فاهتمَّ الكساروة في الاستعداد لنجدتهم ولما علم خورشيد باشا بذلك ورأى الحاج وكلاء الدول الاجنبيَّة عليهِ في بيروت بتلافي الامور وايجاد الامن ذهب إِلَى الحازميَّة بجانب من عسكرهِ المنظم وجانب آخر من عسكر الباشبزوق مؤلف من شراذم

من البشناق وخلافهم ومن بكاوات بلاد عكار ورجالهم وعسكر هناك وتظاهر بأن قصدهُ رفع العداء عن النصارى وحسم الشرّ وايجاد الامن في الطرقات وما شاكل ذلك. الاَّ انهُ لم يطل الحال الاَّ وجاءت الامور على عكس ما اعلن واظهر وكانت نتيجتها الايقاع بالمسيحيين ايقاعاً شنيعاً

واول شيءٍ عملهُ عند احتلالهِ الحازميَّة هو اظهارهُ الرغبة بتقريب قلوب النصارى والدروز بعضها إلى بعض فاستدعى وجهاء الملتين وابان لهم رغبتهُ في السلم وصالحهم وصرفهم من حضرتهِ الاَّ ان صلحهُ لم يكن على اساس متين لاقتصارهِ على الظاهر واضرابهِ عن تسوية الامور المهمة والحزم اللازم في مثل هذه الامور. وقد اكتفى بهِ على وهنهِ واعلنهُ لوكلاء الدول الاجنبيَّة في بيروت مبيناً لهم انصراف المشكل وايجاد الامن. فالنصارى سرُّوا من ذلك واطمأنت خواطرهم اليهِ وظنوهُ مبدأ زمن راحتهم الجديد الذي كانوا يسعون اليهِ بعد ان فقدوا الامن مدة طويلة ولكن خابت آمالهم اذ لم يطل الحال الاَّ وانتقض هذا الصلح الفاسد بيد الدروز ولم يكن من يسألهم عما فعلوهُ فانهم (اي الدروز) لم يخرجوا من حضرة الباشا بعد عقد الصلح بوقت قصير الاَّ واستأنفوا ما نهاهم الصلح عنهُ وازدادوا عداءً واعتداءً للنصارى وشددوا الضغط عليهم وزادوا حالتهم ضغطاً وشدةً فذهب عن النصارى ما نالوهُ من الطمأنينة والارتياح إلى السكينة باحتلال الباشا وعساكرهِ الحازميَّة والصلح الذي عقب ذلك فأعرضوا الامر للباشا وذكروهُ بوعدهِ آن الصلح من مؤاخذة الظالم وانصاف المظلوم فوعدهم

بالافتصاص من المعتدين على عجل وطمن خواطرهم وصرفهم فوثقوا بقوله وما وصلوا ديارهم ومضى الوقت القصير الاّ وازدادت حالتهم تعاسة وشناعة واصبح امنهم مفقودًا وجموع الدروز المدججة بالاسلحة الكاملة تحيط بهم من كل ناحية متوقعة دنوّ الساعة للفتك بهم

وحدثت في يوم ٢٦ ايار (مايو) غربي سنة ١٨٦٠ مظاهرات عدائيّة كثيرة من الدروز واناشيد حربيّة متواترة على مسمع ومرأى من المعسكر والعسكر لم يبدِ اقل ممانعة فوقع النصارى بخوف ويأس واخذ كثيرون منهم يرحلون بحريمهم واولادهم إلَى بيروت مصادفين في طريقهم انواع التعدي والخسف من عساكر السلطان والذين بقوا منهم في اماكنهم وطدوا النفس واقروها على حفظ ديارهم واموالهم ودمائهم بقوتهم وبالمعونة الكسروانيّة الّتي اتصل بهم خبر قدومها تحت قيادة شجعان آغا العضيمي الصرباوي وآخر من الرجال المشهورين بالشجاعة والاقدام

وفي ٢٧ ايار (مايو) غربي سنة ١٨٦٠ . تزايدت مظاهرات الدروز العدائيّة واخذوا يقطعون الطرق على الفارين إلَى بيروت ويقتلون كل من ظفروا بهِ منهم ولو كان عاجزًا وممن قتلوا في ذلك اليوم من الاعيان الامير بشير قاسم شهاب المعروف بأبي طحين « وهو الذي كان حاكمًا على لبنان بعد الامير بشير عمر الشهابي المعروف بالمالطي » ظفروا بهِ وهو خارجٌ من سرايهِ وفارٌّ إلَى بيروت وقتلوهُ على الطريق بين جنائن قرية الحدث وكان وقتئذٍ كفيف البصر وبالغًا من العمر ثمانين سنة . وقتلوا ايضًا في جوار وادي شحرور الامير

عباس سلمان الشهابي وهو فارٌّ إِلَى بيروت وكان اعرج يبلغ الستين من العمر وقتلوا بعضاً من حاشية المذكور وفقد الامن من البلاد

وفي ضحى هٰذَا اليوم بنفسهِ وصلت النجدة الكسروانيَّة مؤلفة من نحو اربعمائة مقاتل تحت قيادة من ذكرنا فاطمأنت بها انفس النصارى وتشددت وحلت مهابتها في قلوب الدروز الاَّ انهُ لم يطل بها المقام ولم تستروح من تعب السفر (وكانت قد عسكرت في جبة بعبدا) حتى علم بامرها خورشيد باشا فأرسل حالاً واستدعى وجوه النصارى اليهِ في الحازميَّة وطلب منهم صرف قواتهم والقاء اسلحتهم انقاءً تفاقم الخطب واتساع نطاق الفتنة فشرحوا لهُ عن الاخطار المحدقة بهم وما يأتيهِ الدروز كل يومٍ من التعديات غير مراعين جانب الصلح ولا جانحين إِلَى السكينة وان عدم امتثال الدروز لاوامرهِ يبعد الطمأنينة عن النصارى ويجعلهم مضطرين للذود عن انفسهم فأجابهم بأن يمتثلوا لامرهِ وهو يكف ايدي المعتدين عنهم وينيلهم راحتهم ويقتص لهم من اعدائهم وانهُ خيرٌ لهم ان يسلموا مقاليد امورهم إِلَى الحكومة ويلقوا اتكالهم عليها وهي تحافظ عليهم كاولادها الطائعين فامتثلوا امرهُ ووثقوا بقولهِ وخرجوا من لدنهُ واملوا ان بواسطتهِ يزول كربهم ويرتفع الشرّ عنهم وتنصرف جموع الدروز المحيطة بقراهم

وبعد هذه المواجهة والمواعيد الَّتِي اطمأنت لها خواطر النصارى رأت النجدة بانهُ لا لزوم لها لان الامن صار يحسب موجوداً بناءً عَلَى مواعيد الباشا وتعهداتهِ . فقفلت من ساعتها راجعة عن طريق بيت مري تاركة الاهتمام بشأن القتال والكفاح . ولم تسر قليلاً وتوسط

الطريق ما بين بيت مري والعبيدية حتى انقضّ عليها جماهير الدروز تحت قيادة رجال من بيت عبد الملك وغيرهم فانتشب القتال وقتاً قصيراً خسر به كلٌّ من الجانبين نحواً من عشرين قتيل وجريح . ولما رأى الباشا النصارى يتأهبون لنجدة فرقتهم ٱلَّتي انقضّ عليها الدروز غيلة و يستعدون للايقاع بالدروز تقدم بعسكره الباشبزق مصحوباً ببعض المدافع وطمن خواطر النصارى واظهر لهم كدره من الدروز وانهُ تقدم للانتقام لهم منهم فارتاحوا لقولهِ لانهم رأوا منهُ دلائل الاهتمام بالعمل . وهكذا سارت النجدة في سبيلها معتقدة ان خورشيد باشا سيقتص من الغادرين ويرجع الامن . وقد اصدر الباشا اوامرهُ للدروز بالكف عن التعدي والرجوع عن اعمالهم المغايرة فكانت نتائج هذه الاوامر رجوع الدروز إلَى مراكزهم الاولى ٱلَّتي غادروها عند تأثرهم النجدة واحتياطهم بقرى النصارى ثانيةً متهددينها بالويل والثبور . ولا ريب ان حالة كهذه جعلت النصارى عَلَى غير رضى وشك عظيم بمواعيد الباشا ٱلَّتي كثر تكرارها عليهم فلذلك رأوا الاهتمام بحفظ حياتهم وديارهم من اعدائهم ضربة لازب فأخذوا يتظاهرون بالقوة والاستعداد للدفاع وعمل ما يحسب دليلاً على القدرة والشجاعة بحسب عرف اهالي الجبال وعوائدهم المألوفة كل ذلك لكي يلقوا الرعب في انفس اعدائهم

ولم يطل الامر على الحوادث ٱلَّتي ذكرناها قليلاً الاَّ واطلق خورشيد باشا مدفعاً من معسكرهِ تبعهُ تقدم عسكرهِ الباشبزق إلَى الامام فظن النصارى بأن الطلق ارهاباً للدروز وتقدم العساكر لتفريق جموعهم بالقوة فاندفع عنهم بذلك ما خامرهم من الريب بمواعيد الباشا

وتعهداتهِ وعللوا انفسهم بقرب انفراج كربتهم ولكنها كانت اشارة اتفق عليها مع الدروز لاشهار الحرب ولم يمضِ على هذه المظاهرات نحو نصف ساعة الاَّ وتحوَّل اطمئنانهم إِلَى خوف وهلع لان جموع الباشبزق انضمت إِلَى الدروز وهجموا جميعاً على قرى النصارى ومزارعهم منشدين اناشيد الحرب والظفر مشهرين السيوف ومجردين الاسلحة آخذين بالقتل والنهب والحرق فدافع النصارى مدةً الاَّ انهُ بالنظر لهذه المباغتة لم يكن بوسعهم الثبات فوقع الخلل فيهم واستولى الخوف على قلوبهم وكان كلٌّ يهتم سيفي الفوز بنفسهِ او الاعتناء بنجاة امرأتهِ وصغارهِ وقد كان اعداؤهم كثيرين لا قبل لهم بمقاتلتهم لاسيما بعد ان انضمَّ إِلَى الدروز عساكر الباشبزق . فلذلك لم يطل الوقت حتى اضحت تلك القرى مرسحاً للتعديات والاعمال الوحشيَّة على انواعها واتون نار ملتهبة لا تسمع منهُ الاَّ صراخ النساء وبكاء الاولاد وانين القتلى وترنمات المعتدين ولا يمثل ضمنهُ الاَّ كل عمل شنيع وفعل فظيع وقد جاء الباشبزق في ذلك اليوم من الاعمال البربريَّة والافعال الوحشيَّة ما تشيب لهولهِ نواصي الرضع فانهم كانوا اذا ظفروا بشيخ اقعدتهُ الايام واحناهُ الهرم اخذوا بفصل اعضاء جسدهِ واحداً فواحداً بسيوفهم ومديهم وتركوهُ يموت في اشد العذاب وان صدفوا شاباً تسابقوا اليهِ بسلاحهم فلا يتركون جثتهُ الاَّ وفيها مئات من الجراح وان وجدوا طفلاً شطروهُ بسيوفهم شطرين . وان كان على يد والدتهِ رفعوهُ الى الفضاء واستلقوهُ على رؤوس الحراب ومن ثمَّ يسلمونهُ لوالدتهِ وهي تبكي وتتوسل اليهم ان يكفوا عنهُ قائلين خذي ابنكِ

انا سكتناهُ لكِ وكفيناكِ شرّ تعبكِ بذلك فادفعي اجرتنا ويقبلون عليها فاذا كان باذنها قرط اختطفوهُ شاهرين الاذن او بيدها سوار اخذوهُ وان تعذر اخراجهُ سريعاً قطعوا اليد واخذوهُ وان كان معها شيء من النقود اخفتهُ للاستعانة بهِ ابتزوهُ منها واكرهوها على تسليمهِ وان تمنعت طعنوها وهكذا اتوا كل امرٍ قاسٍ بربري والدروز نظيرهم لا يبقون على شيءٍ فلم يطل الحال حتى صارت تلك القرى ميدان خراب ودمار وبقعة جهنميَّة تجري في وسطها انواع الفظائع والاهوال ممَّا ذكر وممَّا لم يذكر ولهيب النار صادر من جميع ارجائها والنهبة السالبون حولها آخذين اسلاب اولئك المنكودين وما كان لهم من المقتنيات والاثاث والمؤونة والدينار وكل لوازم الحياة ولم يبقَ من دير او صومعة او بيت او دكان او زريبة الاَّ والنار تلعب بها والريح يموج اللهيب والدخان عاقد سرادقهُ في الفضاء يحجب نور الغزالة ويعلن البعيد والقريب بما حلَّ بتلك البقعة من الويل والثبور ومن جهة ثانية كنت ترى من اسعدهُ الحظ من تلك القرى وفاز بالنجاة بحالة من اشد الحالات يهيم قاصداً ملجأً امينًا والخوف ملء قلبهِ وغبرات الموت على وجههِ . وكم من امرأةٍ كانت تنعي زوجها وتقود ولدها وتندب اخاها وتبكي طفلها والحيرة تلازمها لا تعلم أين تسير وإلى اين تلتجي ان التفتت إلى الوراء ازدادت نحيباً اذ ترى ما صارت اليهِ من الشقاء وما يقطع آمالها من الاجتماع بمن لها من الاعزاء وبالاجمال كان كل خائف لا يعي الاَّ على ما بهِ من الخوف والحذر من السقوط بيد الاعداء . وكانت مدينة بيروت قريبة فلجأ اليها معظم

الفارين ولقوا من مسيحييها ووكلاء الدول والجمعيات الخيريَّة والاديرة فيها اشفاقاً وقبولاً اذ أوى المذكورون اولئك المنهزمين الحزانى العراة الجياع واهتموا بشؤونهم واجروا لهم الرزق اليومي اعالةلهم وتخفيفاً لمصابهم

وقد كان بدء الهجوم عَلَى قرية بعبدا واتصل منها لغيرها في وقت قصير وكان الهاجمون عند ما يدخلون القرية يجتهدون في القتل اولاً وارتكاب الشنائع حتى اذا لم يبقَ امامهم احد يأخذون بالنهب ثم بالحرق ثم بتتبع الفارين من وجوههم والايقاع بمن يظفرون بهِ منهم. وقد حرق في ذلك اليوم من قرى الساحل الجنوبي وادي شحرور العليا والسفلى وبعبدا والحدث ومزرعة اللويزة. ومن المتن الاعلى بيت مري وبرمانا ومزارعهما مع بعض قرى صغيرة مجاورة لهما. وكل ذلك جرى واعين خورشيد باشا تنظر اليهِ وقد بذل جهدهُ بزيادة الخراب والشرّ بواسطة عسكرهِ الباشبزق

وممَّا يحسن بالمؤرخ في هٰذَا المقام ذكرهُ ما جاء بهِ المرحوم الامير محمد ارسلان حاكم الشوف في ذلك الوقت فان هٰذَا الامير الخطير والعالم الشهير لم يشأ ان يجاري ابناء طائفتهِ الدروز ويشترك معهم بما اتوهُ من المنكرات بل كان مضادًّا لما جاءوا بهِ ومجتهدًا بكف اسباب العداء والخصام وكان من شأنهِ حمل قومهِ عَلَى السكينة والسير بحسب مطالب الانسانيَّة والسلام ولما اعيتهُ الحيل ولم يجد لارشاداتهِ مصغياً ولنصائحهِ مجيباً اتخذ على نفسهِ صيانة بلادهِ وسلامتها من كل شرّ وعمل عَلَى ايجاد الامن في انحائها ففاز بمقاصدهِ ولم يحدث في بلادهِ اقل ضرر لاحد الناس. وقد قال البعض بان ذلك كان سياسة منهُ

غايتهُ بها نفع قومهِ لانهُ بواسطتها منع النصارى الكثيري العدد في مقاطعتهِ عن انجاد اخوانهم والحال ان هٰذا القول بعيد عن الواقع بمراحل فان تصرُّف الامير المذكور لم يكن الاَّ عن حكمةٍ وسريرة جيدة ورغبة اكيدة في السلام

ولما ضاقت صدور القناصل في بيروت من فعال خورشيد باشا ورأَوا ان ذهابهُ إِلَى الحازميَّة لم يكن الاَّ بقصد منع الفارين من النصارى من الالتجاء إِلَى بيروت وان عساكرهُ قتلت من ابرياء النصارى اكثر ممَّا قتل الدروز ذهبوا اليهِ كلهم وتهددوهُ بالاساطيل والجيوش الاوربيَّة اذا هو لم يرجع عن فعالهِ الرديئة فتظاهر بالطيبة والاسف على ما جرى للنصارى وقال انهُ خلص كثيرين منهم واتى ما في قدرتهِ لمنع الاعتداء عنهم ولكنهم هم الذين كانوا يثيرون الحرب على الدروز فاذا امتنعوا عن العدوان بطل الاعتداء عليهم وهو يضمن ان الدروز لايحركون ساكنًا الاَّ في الدفاع عن انفسهم فقال القناصل ونحن نضمن ان النصارى لا يعتدون ولا يحاربون فاتفق معهم على ان يرسلوا إِلَى النصارى بالعدول عن الاستعداد للحرب وهو يأمر الدروز بالهدو والسكينة واكد لهم انهم اذا قاموا بوعدهم وسمع النصارى قولهم لم يبقَ موجب للقلق فصدقوهُ ورجعوا من عندهِ فارسل قنصل فرنسا وانكلترا الرسل إِلَى النصارى بالسكون وعدم حمل السلاح واما خورشيد باشا فلم ينهَ الدروز عن شرهم وهكذا لعبت الخيانة دورها مرة أُخرى اذ اخذ النصارى على غرةٍ ومنعوا من الاستعداد لوقاية انفسهم في حين ان الاتراك والدروز كانوا يعملون في كل يوم على الفتك بهم

فصل

في ما اصاب صيدا ونواحيها

ان حوادث بيت مري وغيرها وتصرف الحكام زاد جراءة كل من يروم عداءً وانتقاماً واوجب على النصارى ان يوجهوا اهتمامهم إلى حالتهم الخطرة . ولذلك لما سمع نصارى اقليم التفاح الكائن على مقربةٍ من صيدا بحوادث بيت مري التي تقدم ذكرها ورأوا الشرّ متقدماً نحوهم اهتموا لملافاة الخطوب ورفعها عنهم فانضموا بعضهم إلى بعض تحت قيادة رجل منهم مشهور بالبأس والاقدام بينهم يسمى يوسف المبيّض من قرية درب السين وهي على مسيرة ساعة عن مدينة صيدا لجهة الشرق الجنوبي كما انهُ في الوقت نفسهِ اخذ دروز تلك الجهات والمسلمون في اقليم الخروب المجاور يسعون بالايقاع في جيرانهم النصارى وينضمون تحت قيادة رجل درزي مشهور في تلك النواحي اسمهُ قاسم يوسف

وفي يوم الجمعة سنة ١٨٦٠ (كان عيد العنصرة عند جميع النصارى في يوم واحد لانها كانت سنة كبيس) هجم قاسم يوسف برجالهِ على اربع قرى للنصارى في وقت واحد فقام يوسف المبيض برجالهِ لصدهِ فالتقى الجيشان فوق بساتين صيدا في سهل واقع بين الهلاليَّة والبراميَّة ودارت بينهما رحى القتال وكاد جيش يوسف المبيض

يفوز بالغلبة الاَّ انهُ عند ذلك جاءت نجدة عظيمة لجيش قاسم يوسف من الدروز ومسلمي صيدا ولكثرتها تمكنت من الاحاطة بجيش يوسف المبيض احاطة السوار بالمعصم . ولما رأى يوسف المبيض انهُ صار في حالة لا تمكنهُ من الفوز اشار عَلَى رجالهِ بالانهزام ولكن اذ كانت الاعداء محيطة بهم من كل صوب لم يقدروا ان ينهزموا منضمين فوقع الخلل في ترتيبهم وتفرَّقوا ايدي سبا فبعضهم أَمَّ ابواب صيدا لاجئًا اليها وبعضهم قصد طريق لبنان وبعضهم غيرهما وكان اعداؤهم يطاردونهم ويقتلون كل من يظفرون بهِ منهم

وقد بلغت اخبار انكسار يوسف المبيض مدينة صيدا والمسلمون في الجوامع للصلاة فاخذ مفتي صيدا يخطب في الناس محرضاً اياهم عَلَى قتال النصارى والجهاد والايقاع بهم فخرج القوم من الجوامع متهيجين وممتلئين حنقاً سادين آذانهم عن سماع نصائح اولي العلم والتعقل الذين لم يروا في ما قالهُ المفتي اصابةً بل خطأً وتمادياً في التهور . وكان هٰذا يذهب لسلاحهِ وذاك لعصاهُ خارجاً لمشاركة المعتدين بشرورهم موقعاً بمن صادفهُ من النصارى ضرباً وشتماً وقتلاً وتجديفاً فاستولى الرعب على انحاء المدينة وكثر فيها الهياج والخوف فأُقفلت الدكاكين والمخازن وتوارى النصارى واستولى عليهم الهلع الشديد وباتوا ينتظرون الهلاك دقيقة فدقيقة لعلمهم بانهُ ما من حكومة تدافع عنهم لان رجالها مع الثائرين وليس لهم اسباب للدفاع عن انفسهم . وزد عَلَى ذلك قلة عددهم بالنسبة لجيرانهم فلم يمضِ القليل حتى خلت شوارع المدينة من النصارى حيث صار بعضهم ضمن جدران بيوتهم وعدد

كبير منهم في خان الافرنج حيث كان مسكن الموسيو دريكلو قنصل فرنسا ومسكن راهبات القديس يوسف للافرنج وقد فضل الاغلبون الالتجاء إلى هذا الخان لاعتقادهم بان الثوار لايدخلونهُ اولاً العادة القديمة المتوارثة وهي احترام الخانات اثناء الثورات وثانياً لحرمة قنصلاتو فرنسا الموجودة فيهِ . ولجأ لهذا الخان عدد ليس بقليل من اهالي الجبل الذين امكنهم النجاة من الذبح امام صيدا ومن كانوا في المدينة قبل حدوث واقعة ذلك الصباح

ولما رأى اولئك الثوّار ان النصارى تواروا من امامهم وعلموا بان الفارين من الجبل كثيرو العدد وانهم اخذوا بالالتجاء لصيدا تركوا امر نصارى مدينتهم لحسبانهم انهم في قبضة يدهم ينالون منهم مآربهم متى شاؤُوا وتوجهوا إلى باب المدينة وبساتينها ليترصدوا الوافدين اليها من الهاربين من الاعداء ويوقعوا بهم وقد نفذوا ما نووهُ تنفيذاً تاماً كما سيجيء بك

وكان الذين هربوا الى جهة الجبل بعد انكسار يوسف المبيض عدداً غفيراً والاعداء في أثرهم ولكي يتخلصوا من حالتهم الخطرة ويفوزوا بانفسهم ارتأى بعضهم الاجتماع في جزين والانضمام إلى اهلها النصارى اذ بذلك تكثر قوتهم ويكون لهم اقتدار على دفع الاعداء عنهم فيصيرون على نوعٍ ما بأمن على حياتهم ولكن خاب فالهم فان جزين في ذلك اليوم كانت في اشد الضيق والوبال لمهاجمة الدروز لها مهاجمة عنيفة واليك البيان

جزين بلدة كثيرة عدد السكان وحولها قرى عامرة من النصارى

تجمع عدداً كبيراً من الرجال الاشداء وكان الدروز يحسبون انهُ اذا انضمَّ اهالي جزين إلَى اقليم التفاح تعسر عَلَى الدروز الايقاع بهم وربما دارت الدائرة عليهم (اي عَلَى الدروز) اذا نازلوهم فلاجل التخلص من هذه الصعوبة الخطرة رأى عظماء الدروز ان الحكمة تقضي عليهم ان يسعوا بعدم انضمام اقليم جزين إلَى اقليم التفاح لكي يتسهل لهم بذلك الفوز والغلبة عَلَى الاقليمين وسعوا بانفاذ ما رتبوهُ . فان سعيد بك جنبلاط اكبر حكام الدروز في ذلك الوقت واعظمهم نفوذاً واقتداراً وغنىً حرَّر إلَى اهالي جزين امراً مضمونهُ ان لا خوف عليهم من شيءٍ من الحركات الجارية وانهم في مأمن من كل طارىء بشرط ان لا يبرحوا بلدتهم ولا يتداخلوا مع سواهم في مسائل الحرب الجارية فصدقوهُ وصدعوا بامرهِ واتبعوا تلك المشورة اذ حسبوا ان تداخلهم في الحوادث الجارية كان للذود عنهم ودفع العداء عن ديارهم فلما نالوا هذه الغاية عَلَى اهون سبب بما كتبهُ لهم سعيد بك المذكور امتنعوا عن كل تداخل وزال عنهم الاضطراب وباتوا لا يحسبون حساباً لما هو جارٍ حولهم . وذهبوا إلَى حقولهم ومصالحهم بحسب عوائدهم تاركين اسلحتهم في بيوتهم ولم يفطن اولئك المساكين إلَى ان ما كتب لهم دسيسة يقصد منها اخذهم غيلة باردة عَلَى اهون سبب واقرب طريق . وفي يوم الجمعة المذكور بينما كان القوم في مأمن يعملون في حقولهم دهمهم الدروز وشددوا في قتالهم واخذوا في نهب بلدتهم وما حولها من القرى واعملوا فيها النار والسيوف وقتلوا كل من وقع في ايديهم من رجالها . ولما رأى اولئك المساكين ما حلَّ بهم من الويل والثبور وعدم اقتدارهم

على الوقوف امام اعدائهم لجأوا إلى الفرار مشتتي الشمل والسيف وراءهم لا يعلم احد منهم عن سواه شيئاً وكانت حالتهم تفتت الاكباد وتذيب الجماد وكل منهم يطلب النجاة وهو مضطرب البال لا يعلم بما اصاب ذويه واقاربه واما النساء فحدّث عن حالتهنّ ولا حرج كانت الواحدة منهنّ لا تعلم بما اصاب زوجها او ابنتها لان البليّة حلت بهم على حين غفلة وهم متفرقون في الحقول والمزارع وقد لجأ نحو الف نفس من جزين وقراها إلى غاب قريب منهم وتواروا به من اوجه اعدائهم ظانين ان به النجاة لهم ولكن لسوء بختهم علم الدروز بلجإهم فأتوا واحاطوا به واوقدوا النار في جميع اطرافه وما مضى القليل حتى اضحى ذلك الغاب شعلة نار نظير القرى التي كان يعمل بها لسان اللهيب فمات اولئك المساكين ضمن ذلك الاتون الجهنمي ولم يفلت منهم الاّ القليل . ومعظم الفارين من هذه النوائب قصدوا صيدا لظنهم بأنها دار أمان لهم . فكانوا يصادفون في اثناء هربهم الموت الاحمر فان شراذم الدروز ومن معهم كانت لهم بالمرصاد تقتل كل رجل تظفر به بغير اشفاق ولكن لاتساع فسحة البر تمكن كثيرون من السلامة ووصلوا إلى بساتين صيدا وابوابها وهناك لقوا من ثوّار صيدا شرًّا ما لقوهُ في اثناء هربهم فان اولئك الثوّار كانوا يظفرون بغنيمتهم في بقعةٍ ضيقة من الارض فيذيقونها المرت الاحمر على ما يحلو لهم من طرق العذاب الوحشيّة وكانت تلك الغنائم ترد عليهم فرقًا فرقًا فيتمكنون منها ويعملون اسلحتهم فيها بحسب ما يشتهون ويرغبون ولم يكد يفلت واحدٌ من يد اولئك الجلادين القساة . ولم يقتصر الحال في التعدي

امام ابواب صيدا وفي بساتينها على الفتك بالرجال والفتيان بل تناول الاطفال والاعراض ايضاً وكل نوع من انواع المحارم والعياذ بالله وكانت تلك الجثث بعد ان تنال حظها من العذاب والهوان تبقى في محلات جزرها مأكلاً للطيور ووحوش البر

اما فرق الدروز ٱلَّتي قامت بتلك الاعمال المنكرة في ذلك اليوم الهائل فكانت كلٌّ منها مرؤوسة باحد مشايخهم او احد كبار طائفتهم. وكانوا لا يدخلون قرية من قرى النصارى الاَّ وسلبوا جميع اموالها ومقتنيات اهلها واضرموا النار في ارجائها ونهبوا كنائسها واحرقوها واستاقوا ماشيتها وقطعوا اشجارها حتى لا يبقى لاهلها شيءٌ من اسباب الحياة ووسائل المعاش

ولم تكن هذه التعديات في ذلك اليوم قاصرة على ما ذكر بل تناولت اديرة الرهبان والراهبات ايضاً فان دير المخلص وما جاورهُ من اديرة الروم الكاثوليك ودير مشموشة وما جاورهُ ايضاً في جزين وغيرها من اديرة الموارنة ان كانت للرهبان او للراهبات جميعها سلبت ونهبت وحرقت عن آخرها ولم يسلم من اهلها الاَّ من لم يكن موجوداً بها وكثيرون من رهبانها قضوا على ابواب صيدا مثل غيرهم

وكان منظر الجبل من صيدا في مساء ذلك اليوم الهائل مكرباً محزناً فان نيران القرى الملتهبة كانت تضيء كل تلك الجهات وما حولها إلى مسافة بعيدة والدخان المتصاعد منها يعقد سرادقهُ المظلمة في الفضاء فيحجب منظر القمر والنجوم البهيَّة عما تحتهُ من البقاع. وكانت مياه نهر الاولي تأتي مصبوغة بالدماء حاملة جثث الضحايا ٱلَّتي القيت

فيهِ وتأثير هذه المناظر في الناس عَلَى نوعين متباينين فالنصارى وعقلاء الاسلام كانوا ينظرون اليها بأسف وغمّ والدروز وجهلاء الاسلام من سنيَّة وشيعيَّة ينظرون بفرح وابتسام يحسبونها من ادلة انتصارهم وفوزهم . هؤلاء هم الذين يريدون الاستقلال من سيطرة الاوربيين

اما الذي دمر في ذلك اليوم فلا يقل عن خمسين قرية خلا الاديرة وعدد الضحايا البشريَّة حوالي الف وخمسمائة قتيل منهم ٢٥ راهباً مارونيًّا و ١٥ راهباً وقسيساً كاثوليكيًّا وعدد قليل من قسوس الروم الارثوذكس

وفي مساء ذلك اليوم سكن حال اولئك الثوار نوعاً في صيدا واظهرت الحكومة شيئاً من الاهتمام فصادف النصارى بعض الطمأنينة الاَّ ان الخوف لم يفارقهم وكانوا دائماً ينتظرون الفتك بهم وقد استمرَّ الحال عَلَى ذلك بضعة ايام وشراذم الفارين من المذابح تفد عَلَى صيدا وتدخلها بما يتسهل من الوسائط وتلتجئ إِلَى خان الافرنج المار ذكرهُ حتى تجمع فيهِ اكثر من اربعة آلاف نفس من اولئك المصابين جلهم من النساء الثكالى والارامل والاطفال الايتام الذين نكبوا في تلك المذابح الهائلة . وكان بينهم كثيرون من الرجال الجرحى وقد ضاق بهم ذلك الخان عَلَى سعتهِ ولم يمكن تفريق هٰذا الجمع إِلَى محلات اخرى لان الخوف فيما سواهُ على النصارى كان كثيراً وكان التهديد مستمرًّا والعداء شيئاً مرًّا

اما الموسيو دريكلو قنصل فرنسا في صيدا والراهبات اللواتي كنَّ

معهُ في ذلك المكان فقد اهتموا باولئك المساكين غاية الاهتمام وجعلوا يفرقون عليهم من الملابس ما يقدرون عليهِ حتى لم يبقَ للقنصل والراهبات من الملابس الاَّ الاثواب الَّتي عليهم . وكان اولئك الراهبات يشتغلنَ ليلاً ونهاراً في تمريض الجرحى والاعتناء بالمرضى ومواساة الحزانى من اولئك الضيوف التعساء . وقد كان القنصل يصرف على اطعام الجمع الذين عندهُ كل يوم خمسة آلاف رغيف وغير ذلك من الاطعمة وساعد اهالي صيدا ومن بها من الاجانب في اعالة اولئك المساكين ولكن العدو كان عظيماً والضيق الخارجي شديداً فلذلك لم تكن عناية القنصل من هذا القبيل مع مساعدات الآخرين كافية لاعالة اولئك المساكين المصابين مع شدة الحالة وضنكها من الخارج فمات بعضهم جوعاً واعين المعتنين تنظر وقلوبهم تتمزق اشفاقاً وحزناً وليس بالامكان رفع كل تلك الاثقال عن عاتق الذين خانهم الدهر . وكان اولئك التعساء في حالة تتفطر لها الاكباد لا درهم لهم ولا متاع ينظرون إلَى حالتهم التعيسة بأعين دامعة وقلوب منفطرة من الاحزان وملوءة من الشكر والامتنان لمن اووهم واعتنوا بهم وكان كل حديث هؤلاء الجماعة في من فقدوهُ وما خسروهُ فكنت لا ترى الاَّ امهات نائحات وزوجات نادبات واولاداً باكين واباء متحسرين آسفين وجرحى متوجعين ومرضى واطفال صارخين . حالة تفتت الاكباد ويتمزَّق لهولها كل فؤاد . وكل ذلك لم يؤثر في ثوَّار صيدا شيئاً وزادهم رغبةً في سفك دم جيرانهم واللاجئين اليهم فكان المصابون يسمعون ذلك فتزداد بلواهم ويتعاظم حالهم

وقد كان اهالي صيدا النصارى في خوف مستمر لان الهياج كان كل يوم بازدياد والحالة باشتداد والايقاع بهم كل يوم باقتراب فباتوا لا ينتظرون الاَّ دنوّ ساعتهم غير مؤمّلين بشيءٍ من السلامة والنجاة الاَّ باعجوبة خارقة العادة فان عقلاء الاهالي من المسلمين باتوا عاجزين عن كبح جماح الثائرين ومتسلم البلد مال إلَى الثوّار والمفتي وبعض الاعيان اتخذوا مبدأ التهييج وحض الناس عَلَى الشر والعداء فلذلك كان دأب نصارى صيدا والمصابين الذين بها التوسل لله والطلب منهُ اناء الليل واطراف النهار ان يدبر لهم مخرجًا من الاخطار الَّتي صاروا اليها . وبينما مفتي صيدا ومتسلمها عَلَى وشك اعطاء الاذن للثوّار بالهجوم عَلَى خان الافرنج وذبح من بهِ من الغرباء واهل المدينة اللاجئين اليهِ والايقاع بمسيحييها الذين خارجهُ ونهب بيوتهم وحرقها حدث بغتةً ما عرقل تلك المساعي وخلص مدينة صيدا من المذبحة المعدة لها واليك تحرير الخبر :

في آخر مدة اشتداد الخطر عَلَى صيدا وفدت عَلَى بيروت اساطيل اجنبيَّة لتسكين الحالة المضطربة في سوريَّة وكان من ذلك اسطول فرنساوي كبير فبوصول الاسطول إلَى بيروت بلغ اميرالهُ ما صارت اليهِ صيدا من الضنك الشديد والخطر العظيم فحالاً بعث بارجة من بوارجهِ إلَى صيدا ليستكشف حالها ويسعى في خلاصها فذهبت تلك البارجة عَلَى جناح السرعة فبلغت صيدا والخطر محدق بمسيحييها والثوّار عَلَى وشك الهجوم عليهم دفعة واحدة لاعدامهم ونهب اموالهم واحراق ديارهم فخرج ربّان البارجة إلَى البر حال وصولهِ وذهب إلَى المتسلم

بين هياج الثائرين وجلبتهم وسأله عن الاحوال الواقعة وطلب منهُ ان يحفظ ويهدئ هياج الشعب ويردع الناس عن مقاصدهم ويوطد الامن والطمأنينة فاجابهُ المتسلم اني لست قادراً على حفظ المدينة ساعة واحدة . فتركهُ الكومندان اذ ذاك ونزل إلى سفينتهِ في الحال واقلع من صيدا ولم يمضِ ساعتان من الزمن حتى ظهرت امام صيدا بواخر الاسطول الفرنساوي مع بعض بواخر حربيَّة انكليزيَّة فرست هذه البواخر امام صيدا كجبالٍ رواسٍ او كاطوادٍ شوامخ وقد اطلقت حين وصولها بعض مدافع فانتبه لها الثوَّار فانهلعت قلوبهم وذلت وارتدوا عما كانوا يقصدونهُ من النهب والقتل

ولم يطل الامر حتى طلع اميرال البوارج الفرنساويَّة ببعض عساكرهِ إلى البر فسكن الهيجان تماماً وانفصمت عروة الثورة وتفرَّق رجالها ولم يبقَ لها من أثر واطمأنت قلوب النصارى وزال ما كان قد ألمَّ بهم من الخوف وأمن الناس من الشرّ وخرجت نساء المصابين من محبسهنَّ في ذلك الخان الذي أقمنَ بهِ اياماً كثيرة تحت اثقال الشدة والخوف المستمرّ وصرنَ يقبلنَ الارض بين يدي ذلك الاميرال الذي اعتبروهُ مخلصهنَّ ومخلص من معهنَّ واخذنَ يسكبنَ دموع السرور والحزن معاً ويدعينَ لهُ بطول العمر فالاول لنجاتهنَّ ونجاة مَنْ بقي لهنَّ من رجالهنَّ بعد ان مرَّت عليهم كل تلك الاهوال والثاني لفقدهنَّ مَنْ فقدنَ بتلك المذابح الهائلة ولما قاسينَ من الشدائد والاهوال والجوع والمرض . وقد كانت ساعة مؤثرة ومنظراً محزناً انسكبت لهُ دموع الاميرال ورجالهِ شفقة واسفاً فجعل يهضمهنَّ ويعزّيهنَّ ويطيب خواطرهنَّ

ويعدهنّ بأخذ حقوقهنّ والاقتصاص من ظالميهنّ . ثم دخل الخان فوقع نظرهُ على ذلك الجمع المصاب فازداد غمًّا وتأثرًا فطيب خاطر الموجودين بكلام عذب حسبوهُ بلسمًا لجراحهم البالغة وقد اقام في صيدا ريثما استتبّ الامن تمامًا ولم يبقَ ما يخشى منهُ واحضر مقدارًا كافيًا ليفرقهُ على اولئك المساكين كل يوم . فصارت توزّع عليهم احتياجاتهم فشكروا واثنوا وانطلقت حريتهم فصاروا يخرجون من الخان متى شاءوا ولا يخشون شرًّا وبعد ذلك عاد امير البحر إلى بيروت وتبعهُ اليها عدد عديد من مهاجري حاصبيًا ومرج عيون وغيرها

وبعد حوادث اقليم التفاح وقضاء جزين المار ذكرها تحركت الخواطر في بلاد بشارة ايضًا وفي بلاد عكا وصفد وطبريا ولكن بكوات بيت علي الصغير منعوا حدوث ذلك في بلادهم (بلاد بشارة) وحالوا دون كل شرّ يقع على نصارى مقاطعتهم . واما في بلاد عكا وصفد وطبريا والناصرة فحال دون اجراء هذا الشرّ العظيم ذلك الشهم البدوي عقيله اغا الحاسي المغربي الاصل شيخ عرب الهنادي في تلك الاطراف وكان ذلك منهُ اجابةً لمطالب شهامتهِ وتتميمًا لارشاد الامير عبد القادر الجزائري نزيل الشام الذي سيأتي ذكر ما كان لهُ من الايادي البيضاء في حادثة دمشق وما ابداهُ من الشهامة والمروءة والانسانيّة

فصل

في واقعة زحلة سنة ١٨٦٠

كان الدروز وجميع اهالي البقاع والعشائر القديمة في تلك الايام يهابون مدينة زحلة ويخشون بأسها لشدة رجالها وشجاعتهم ولما ابلتهم به ايام حروبهم السالفة وكان اسمها عنوانًا للشدة والبأس بين جميع القبائل والعشائر وصيتها منتشرًا في جميع انحاء سوريّة . وقد زادت مهابتها في اعين جيرانها والدروز عمومًا لما اتسعت تجارتها واعمالها وصارت نقطة تجاريّة عظيمة لجميع تلك البلاد وقد كان الدروز لحسدهم لها وطمعهم في اذلالها يترقبون الفرص للتنكيل بها واذلالها حتى يصفو لهم جوّ النفوذ . ولما حدثت الحوادث المار ذكرها ونالوا من المساعدات ما جعلهم يفوزون فوزًا مبينًا لاح لهم ان خراب زحلة يمكنهم من نوال السطوة العظيمة ويجعل نصارى لبنان جميعًا في قبضة ايديهم واهل بلاد البقاعين وبعلبك ووادي التيم وحوران عبيدًا لهم فلذلك وجهوا انظارهم لمحاربة زحلة وتدميرها كما دمروا دير القمر وغيرها ولكنهم كانوا يخشون بأسها ويحسبون لها حسابًا فرأوا ان يتخذوا كل الطرق الّتي تجعلهم في مامن من الفشل فاكثروا من عقد الاجتماعات فيما بينهم وترتيب امورهم لكي يحملوا عليها بقوة عظيمة فضموا اليهم قبائل كثيرة من العربان

وجموعاً غفيرة من اسلام بلاد بعلبك المتاولة والبقاعين واستدعوا دروز حوران لمساعدتهم فأتاهم الشيخ اسماعيل الاطرش اشهر مشايخ دروز حوران واشجعهم ومعهُ حوالي ثلاثة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل وهم فرق كل فرقة يقودها شيخ صغير من مشايخ دروز حوران . ولما تكامل الجمع وبلغ عدد المقاتلين ١٥ الف رجل مؤلفين من دروز لبنان وحوران والمتاولة والمسلمين والعربان حملوا عَلَى زحلة ٱلَّتي لم يمكنها ان تقاتل هذه الجموع الغفيرة . فتلقتهم زحلة بثبات عظيم وفازت بابعادهم عنها مرات متوالية موقعةً الخسائر العظيمة في صفوفهم عَلَى قلة رجالها كما تقدم حتى صاروا يهابونها ويخشون ان يرجعوا مدحورين عنها . وبينما نيران الحرب تستعر بين المتحاربين والفوز مرجح لاهالي زحلة وفد جيش كبير من العسكر المنظم تحت قيادة نوري بك بأمر خورشيد باشا المار ذكرهُ وموافقة قناصل الدول في بيروت وذلك لردع البغاة واجلائهم عن زحلة وتسكين الامور والمحافظة على النصارى . وعند وفود هذه القوَّة فعوضاً من ان تبادر لانقاذ ما بعثت لاجلهِ انضمَّ قائدها لجيش الدروز واخذ يحاول خداع اهل زحلة ليأخذ سلاحهم ومن ثمَّ يذبحهم كالغنم كما جرى في حاصبيَّا وراشيَّا ودير القمر فقطن النصارى لمكيدتهِ هذه ٱلَّتي تكرَّر حدوثها وعرفت نتائجها فأبوا اجابة مطالبهِ وذكروهُ بأمورية وما يجب عليهِ بحسبها من العمل على تفريق جيوش المعتدين العظيمة وايجاد الامن للنصارى في زحلة والبقاع وتلك الاطراف جميعها . واما هو فاصرَّ على مطالبهِ الخداعيَّة واجتهد بكل دهاهُ ان يصيد بها الزحليين ليجعلهم غنيمة

باردة بيد اعدائهم واذ لم ينز بما قصد جنح اخيراً إلى التهديد واعلن الزحليين بانهُ يعتبرهم عصاة خلفاة اذا ابوا اجابة مطالبهِ واعرضوا عن آرائهِ فأنكروا عليهِ ذلك وقالوا انّا عبيد الدولة وطوع عدالتها ولكن كيف يأتي لنا تسليم اسلحتنا وهذه الجموع الغفيرة المدججة بالاسلحة محيطة بنا من كل ناحية وصوب تقصد لنا الشرّ ولا تهاب الحكومة كما جرى لها في جهات كثيرة قريبة العهد فكان النصارى بعد تسليم اسلحتهم عرضة لشرّها وقد اوقعت بهم بالفعل وتركت بلادهم مطعمًا للنار ورجالهم لطيور السماء واموالهم مغنمًا للعصاة ونسائهم هائمين في بلاد الله فخذ اسلحة هذه الجموع واجلها لاوطانها لنرتاح من الخوف منها ومن ثمّ ترانا اطوع لك من خيالك في كل ما تأمر بهِ . فأبى سماع احتجاج الزحليين وقال اذًا انتم غير مطيعين لما امرتكم بهِ فوجه قواهُ ضدهم وساق جيوشهُ عليهم فتلقوها بالصد وفازوا عليها وردوها عنهم فتاكد وقتئذٍ نوري بك القائد المذكور ان الاستمرار على منازلة اهالي زحلة لا يجدي نفعًا ويضيع كل آمالهِ من نكاية زحلة وخرابها لانهُ كان يعلم بان الخبر لا يلبث ان يصل لبيروت فترد لهُ الاوامر بالانكفاء عنها . ومن جهة ثانية تتعزّز قوّة زحلة ايضًا بالنجدة الّتي كان ينتظر وصولها اليها من كسروان تحت امرة يوسف بك كرم البطل المشهور فتقوى بها على تلك الجموع كلها وتفرقها ايدي سبا فعمل على اخذ زحلة بالحيلة قبل ان يحول دون مغانيهِ مانع

ولما صمم نوري بك على ما نواهُ اجتمع على رؤساء الدروز وغيرهم واعرب لهم عما رآهُ من الميل إلى اخذ زحلة بحيلة جديدة وما ارتآهُ

في ذلك من الطرق فاستحسنوهُ ورتبوهُ ترتيباً جيداً وصار الدروز ومن معهم يتظاهرون كانهم جيش يوسف بك كرم فيغشون بذلك الزحليين وينالون منهم مآربهم

وفي اليوم الثاني الذي هو يوم الاربعاء في ٤ لوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ كان ترتيب المكيدة قد تمَّ تماماً فأصبح الزحليون للدفاع عن مدينتهم كالعادة في الايام السالفة منذ احاطت بهم جموع الاعداء ورأوا من جهات لبنان جيشاً كثيفاً يحمل رايات النصارى وبيارقهم المختصة بهم اثناء الحرب وهو مقسم فرقاً كل فرقة يتقدمها رجل حاملاً صليباً والجميع ينشدون نشائد الحرب ويطنبون بيوسف بك كرم ويظهرون بأن فرقهم هذه تحت قيادتهِ ويعرضون بذكر الانتقام من الدروز فظنَّ الزحليون بان تلك كتائب يوسف بك كرم التي كانوا ينتظرون قدومها لمساعدتهم في تلك الاوقات الحرجة ففرحوا غاية الفرح ولم يبقَ عندهم ريب في تلك القوة وخصوصاً عند ما رأوا بيارق الصليب تتقدمها فخرجوا للقائها واستقبالها استقبال الصديق لصديقهِ إلى مسافة بعيدة عن زحلة غير حاسبين حساباً لشيء ولا عالمين بأن تلك المظاهر مظاهر غش وخداع تظاهر بها اعداؤهم ليهون عليهم الفتك بهم . ولما اقترب الزحليون من اولئك القادمين وعرفوا سرَّ الامر اضحوا وهم على غير استعداد محاطين من كل جهة بجموع تفوق عددهم نحواً من خمس مرّات وتعمل بهم بسيوفها واسلحتها النارية عملاً هائلاً ولكنهم ابلوا بلاءً حسناً وهم في وسط حلقة من الاعداء وحاربوا حرب الابطال الاشداء وتمكن العدد العديد منهم من

خرق تلك الصفوف والفوز بالنجاة وكانت تلك الساعة هائلة سقط فيها في تلك السهول عدد غفير من الرجال الاشداء من الجانبين

اما زحلة فقد بقي فيها في ذلك اليوم نحو اربعمئة مقاتل لاجل المحافظة على البلدة والذراري والاموال ولما رأت هذه الفرقة ما حلّ بالرجال الزحليين وكيف اخذوا غيلةً تاكدت بأنهُ لا قبل لها بحفظ المدينة من هجمات تلك الجموع الغفيرة وبعد المشورة رأوا بأن احسن سبيل للنجاة الهرب بمن في المدينة وبما يمكن حملهُ من المتاع والالتجاء الى الجبال والبراري وهكذا تمّ وهرب من زحلة في ذلك الوقت القصير من امكنهُ الهرب وبقيت المدينة خالية من رجال الحرب ولم يبقَ الاَّ العاجزون وعددٌ عديد من النساء فتقدم نحوها الدروز ومن معهم يصحبهم عسكر منير بك فنهبوا المدينة وقتلوا من رأوهُ بها من المتخلفين وهم قلائل رأوا الموت في سبيل الذبّ عن وطنهم افضل مغنم وبعد ان تمّ النهب اوقدوا النار في انحاء المدينة ولم يمضِ زمن قصير حتى باتت زحلة مدينة الاشداء وبلدة التجارة والفن شعلة نار وقد جاء العسكر في ذلك الوقت باعمال همجيّة تقشعرُّ منها الابدان لانهم اعتدوا وارتكبوا كثيرًا من المنكرات لاسيما في دير الراهبات وكان عددهنّ ٢١ راهبة اتوا المنكر معهنّ وقتلوا بعضهنّ . اما نجدة يوسف بك كرم فحضرت بعد ان انتهى الامر واضحت زحلة خرابًا تلعب النار في ارجائها فرجعت النجدة آسفة على دمار تلك المدينة الزاهرة

وقد امتدت الثورة في ذلك اليوم الى قرى النصارى في البقاع

و بعلبك ونهبت وحرق كثير منها وقتل عدد غفير من رجالها . وفرّ الباقون من الاحياء الى جهات مختلفة واختبأ بعضهم في الغابات و بين الصخور والمغاير . وقد كانت خسائر زحلة عَلَى ما اكدهُ العارفون ٤٠٠ قتيل وخسائر بلاد البقاع و بعلبك ٥٠٠ والجملة ٩٠٠

من الرجال الابرياء ذهبوا ضحيّة الدسائس التركيّة مثل غيرهم من ابرياء الجهات الاخرى

فصل

في ما اصاب بيروت ونواحيها من اهوال سنة ١٨٦٠

من اغرب ما يقال في هذه الرواية المكربة والاخبار الهائلة ان الله ابقى في صدر الدروز بقيّة من المروءة والفضيلة نحب ان نذكرها لهم هي انهم كانوا يحافظون عَلَى حياة النساء وصيانة اعراضهنّ محافظةً غريبةً ويلاطفوهنّ بالكلام الطيب بعد قتل احب الناس اليهنّ عَلَى مرأًى منهنّ. واحترام النساء والاعراض عادة في الدروز واما بقيّة الذين عاونوهم عَلَى الفتك بالنصارى فاتوا كل منكر وكل رذيلة ولم يظهروا ما اظهرهُ الدروز من هٰذَا القبيل. ولما كان هٰذَا مبدأ الدروز فقد عني مشايخهم من آل ابي نكد وحماده بايصال نساء دير القمر بعد مذبحتها المريعة الى مدينة بيروت وساقوا منهنّ حوالي الفي امرأة اكثرهنّ عَلَى وشك الموت من الجوع والحزن المفرط والقنوط الزائد والخوف الشديد والهمّ الذي لا يطاق وحدث انهُ وصل ميناء بيروت في تلك الايام سفينتان انكليزيتان فلما علم بهما الدروز ارسل احد مشايخهم إلَى امير البحر في احداها يطلب اليهِ ان يرسل بعض رجالهِ لاستلام النساء فذهل الامير لهذه القحة الزائدة وعلم من هٰذَا الطلب ان الدروز كانوا يظنون انهم لم ياتوا امرًا منكرًا في قتل النصارى

وانهم عملوا الواجب عليهم ونفذوا امر حكومتهم ولكنهُ لم يمتنع عن الاعتناء باولئك المساكين فجاء اليهنَّ ولما رأينهُ ترامينَ عَلَى اقدامهِ وهنَّ يولولنَ و يندبنَ من فقدنَ ويصحنَ قائلات « ان الترك فعلوا بنا كل هذه الفعال . الترك قتلوا رجالنا . الترك نهبوا اموالنا » . . . ولم يذكروا الدروز بشرٍ فشهدنَ بذلك عَلَى توحش الاتراك وظلمهم . ثم جالت السفينتان بين بيروت وصيدا فوجد رجالها اناساً كثيرين من الفارين اكثرهم نساء وجاءوا بالجميع الى بيروت حيث بدأ اصحاب الاحسان من اهل اوروبا والوطنيين يرسلون اليهم الطعام والكساء الى ان انفرجت الازمة وعاد كلٌّ الى مقرهِ او مقرّ اجدادهِ

وكانت دسائس الاتراك وفعال الدروز قد هيجت مخاوف المسلمين واحقادهم في بيروت مثل سواها من المدن فحدث انهُ قتل في تلك الاثناء شاب من المسلمين في مدينة بيروت قيل ان الذي قتلهُ تركي مسلم فعل ذلك بامر الوالي خورشيد باشا فهاج المسلمون وماجوا وشاع الخبر بينهم في الحال ان النصارى قتلوا هٰذا الشاب وعزموا عَلَى الانتقام العاجل فأقفلت الدكاكين وتوقفت حركة الاعمال وعمَّ الخوف والقلق ولجأ معظم المسيحيين الى بيوت القناصل والاجانب و بعضهم استعان بأشراف المسلمين واصحاب الذمة والمروءة منهم وصار اشرار المسلمين يتوعدون النصارى بالذبح و يطلبون معرفة القاتل حالاً او يفتكون بكل اهل ملتهِ واهانوا قنصل انكلترا وقنصل فرانسا وكانوا عَلَى وشك القيام للذبح والفظائع الاخرى لولا ان يتهددهم قبطان الباخرة الانكليزية باطلاق المدافع عَلَى بيوتهم وتدميرها . وكان في المينا باخرة

عثمانيَّة قائدها رجل انكليزي اسمهُ اسماعيل باشا (الجنرال كتي) ساعد عَلَى اخماد الفتنة عَلَى قدر طاقتهِ وتهدد الثائرين بانزال عساكرهِ وعساكر الباخرة الانكليزيَّة الى البر لمحاربتهم اذا لم يرجعوا عن غيهم ولكن غيظ هؤلاء الاشرار لم يخمد الَّا حين شاع في المدينة انهم وجدوا القاتل وكان فتىً نصرانيًّا في شرخ الشباب عرف بين ذويهِ ومعارفهِ بسلامة القلب وحسن الخصال فجرَّهُ الثائرون الى سراي الحكومة ولا ذنب لهُ غير ان بعض الحاقدين عليهِ دلهم اليهِ واشاع ذلك الخبر عنهُ وبدأت محاكمتهُ في الحال فحكمت عليهِ المحكمة بالاعدام بعد نصف ساعة من القاء القبض عليهِ ولم يسمع ان قاتلاً حوكم واعدم بمثل هذه السرعة اذ ليس يمكن ان تجمع الادلة عَلَى ادانتهِ في مثل هٰذَا الوقت الضيق . ورأى الشاب ان الخلاص بعيد عنهُ فصاح في رجال المحكمة « اني بريء كما يعلم الله ولكن اذا كان قتلي يهدّي الخواطر و يفيد بني قومي فهذا عنقي اقطعوهُ الآن » واعدم هٰذَا البريء مثل غيرهِ من الذين سخط عليهم الزمان واوقعهم في مخالب الاتراك فراح هٰذَا الفتى الشريف ضحيَّة عن قومهِ ولم نعثر باسمهِ في الكتب الَّتي نقلنا هٰذَا الخبر عنها

عَلَى ان هٰذَا لم ينفِ الخوف ولا امات الاحقاد فقد كان الدروز يجيئون بيروت افواجًا والدم البريء عَلَى ملابسهم واسلحتهم وكان المسلمون يصافحونهم و يعانقونهم و يهنئونهم بالنصر مع ان الدرزي عدوُّ المسلم من يوم نشأتهِ والمسلمون يعلمون ذلك ولكنهُ التعصب الذميم والحسد الوخيم والعياذ بالله من فعل الشيطان الرجيم . وعاد الاضطراب إلَى

اكثر من سابق حالهِ بعد حين فوقفت التجارة وقوفاً تاماً واقفلت المخازن وعادت البضائع الواردة إلى بيروت قبل ان تفرغ فيها وهاجر العدد الكثير إلى اثينا ومالطه واسكندرية وغيرها وشحن البنك العثماني كل ما كان فيهِ من المال والورق وارسلهُ إلى انكلترا ورحل اكثر الاجانب وصار تطمين الخواطر مستحيلاً لان النصارى عن بكرة ابيهم اعتقدوا اعتقاداً تاماً ان نصيب اخوانهم في دير القمر وحاصبيا ينتظرهم يوماً بعد يوم ما داموا في مدينة بيروت وكانوا يفرُّون خوفاً من عساكر الاتراك لا من الدروز

واشتدَّ في ذلك الحين الخوف على بلاد كسروان وجبال الموارنة لان خورشيد باشا امر بعض جنودهِ بالتقدم عليها « حتى يحمي النصارى » وكان الناس يعلمون معنى هذه الحماية بعد الذي رأوهُ من فعال الاتراك وعساكرهم فرأى القناصل ان الخطر شديد على الموارنة وهم لا يقلون عن نصف مليون نفس وارسل المستر مور قنصل انكلترا الجنرال مذكرات إلى بقيَّة القناصل يدعوهم إلى الاجتماع في بيتهِ للمداولة فجاءوا اليهِ في الحال وبعد المشاورة قرَّ رأيهم على ان المذاكرة مع الغادر الكاذب خورشيد باشا لا تفيد شيئاً (وكانوا قد طلبوا من دولهم القوَّات العسكريَّة) قبل ان تصل النجدة من اوربا ما دام هذا الخادع قد خدعهم مراراً واظهر انهُ ادنى المتوحشين وعزموا على ارسال قرار منهم جميعاً إلى مشايخ الدروز ينهونهم فيهِ عما كانوا ينوون من مواصلة القتل والذبح ويحذرونهم من العواقب لانهم علموا ان المروءة والشعور والانسانيَّة لم تفقد من صدر الدروز كما فقدت من

الاترالك وعلى ذلك كتبوا مذكرة على ان ترسل إلى سعيد بك جنبلاط وغيره من زعماء الدروز وهذه ترجمتها

« نحن وكلاء دول انكلترا والنمسا وفرنسا وبروسيا وروسيا قد علمنا بملء الاسف ان القتل والسلب والتدمير لم تزل إلى الآن تعمل على نطاق يوجب اللوم الشديد . وعليه فنحن نكلفكم رسميًّا بأن توقفوا كل هذه المصائب ونحذركم بصفتنا وكلاء عن الدول الاوربيَّة وبناء على تفويض جاءنا من السفراء من عواقب هذه الامور . ونعلمكم ان المسؤولية الَّتي ستلقى عليكم في المستقبل ثقيلة عظيمة خصوصًا اذا جدت منكم او من قومكم حركات اخرى ضد المسيحيين او ضياعهم او املاكهم . فلاجل الوصول إلى هذا الغرض نرى من الضروري ان نكلفكم ونشدد عليكم ان تعقدوا الصلح بأقرب ما يمكن من الوقت وان تأمروا فرق جيشكم الموجودة الآن في انحاء دمشق وصيدا وزحلة ودير القمر وكسروان وغيرها بالرجوع عنها . فأمعنوا النظر في النتائج الوخيمة الَّتي تنتج عن عدم قيامكم بمطالبنا هذه واعلموا ان حكوماتنا لا تطيق السكوت عن حالة مثل هذه »

ولم يجسر احد الاهالي على اخذ هذه المذكرة إلى مشايخ الدروز لان البلاد كانت في حالة الاضطراب والحرب يومئذٍ فتقدم انكليزي اسمهُ جراهام لهذه المهمة وطار بالانذار إلى المختارة قرية سعيد بك جنبلاط فلما رآهُ الدروز لم يتعرَّضوا لهُ لانهم كانوا يتحاشون التعرض للاوربيين فدخل على سعيد بك واعطاهُ الكتاب فلما قراهُ وقف على الاقدام ورفع الورقة إلى رأسهِ علامة الاحترام والاكرام وتذلل امام

المستر جراهام وقال ان طاعة القناصل محتمة عليهِ و بالاخص قنصل الدولة الانكليزيَّة ولكنهُ ادَّعى الضعف وقال ان الدروز ليسوا تحت امرهِ فاجتهد المستر جراهام باقناعهِ ليسمع النصيحة ورأى منهُ عين الغدر والمحاولة وتاكد بعد الجهد الجهيد ان هٰذا الغادر لايريد العدول عن مقاصدهِ السيئة فعمد إلَى بشير بك ابي نكد وكان يومئذٍ في المختارة (وهو الذي اقسم ان يضع جماجم النصارى في اساس بيتهِ على مقربةٍ من دير القمر) فألحَّ عليهِ هٰذا الانكليزي المهام بمساعدتهِ في ابطال الحرب واجابهُ الدرزي بمثل ما اجابهُ سعيد بك . و بذل المستر جراهام جهدهُ في الامر حتى أقنع سعيد بك بعد اللتيا والَّتي بكتابة الاوامر إلَى بعض الامراء بكف العداء وكان من هذه الكتب واحد ارسل إلَى حاصبيَّا خاص بوصولهِ جماعة من النصارى في منزل الست نايفه وقد مرَّ ذكرهُ . ودار المستر جراهام بعد ذلك على كل مشايخ الدروز واكابرهم يريهم الانذار و يرجوهم بكل لسان ان يساعدوهُ على قمع الثورة وابطال الحرب فكان اكثرهم يتذلل بين يديهِ و يعد بالامور الطيبة او يقول انهُ اضعف الناس لايقدر على شيءٍ وعاد الرجل وهو يعلم ان الدروز لايسمعون النصح ولا يرضخون لغير القوة

كل هذه الامور كانت تجري وعساكر الدولة الفرنساويَّة مسافرة قاصدة سوريَّة بأمرٍ من دول اوربا لابطال هذه المذابح ومقاصة الثائرين فوصلت في ١٦ اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان فؤاد باشا معتمد السلطان قد سبقها ليخفي الحقائق و يسكت الذين يريدون التظلم واظهار مايكنهُ الفؤاد وخلد الدروز والمسلمون من بعد وصولهِ الى السكون ولكن بعد ان حصلت المذابح التي مرَّ ذكرها

فصل

في مذبحة دمشق سنة ١٨٦٠

ليس من نيتنا ايراد تاريخ دمشق في هٰذَا الفصل كما اوردنا تاريخ غيرها من المدائن الصغرى وذلك لاشتهار هذه المدينة واطلاع الناس على تاريخها واحوالها . يكفي ان يقال انها اعظم مدن الشام واكبرها وانها جنة الله في ارضهِ ولاهلها عَلَى اختلاف اشكالهم شهرة في طيبة القلب واللطف وانها كانت مركز حكومة الشام من بعد دخول الجيش المصري إِلَى هاتيك الربوع وفي دمشق حوالي مائة وخمسين الفًا من السكان تسع اعشارهم من المسلمين وللمسيحيين منهم حارة خاصة بهم تعرف بباب توما

وقد ذكرنا الاسباب الكثيرة ٱلَّتِي هيجت احقاد المسلمين عَلَى النصارى في سنة ١٨٦٠ واهمها دسائس الحكام . وكان في دمشق وال اسمهُ احمد باشا اعطي في ذلك الحين رئاسة الامور الاداريَّة والعسكريَّة معًا ولم يسمع في تاريخ الاتراك بأَخبث من هٰذَا اللعين ولا أَميل منهُ إِلَى المفاسد والمكايد . هٰذَا جعل همهُ تحريك الخواطر وتمهيد اسباب المذابح حتى تمَّ ما تمَّ في المدائن الاخرى وكانت مذبحة حاصبيَّا وراشيَّا عَلَى يدهِ وبأَمرهِ والذين قاموا بها من عساكر الاتراك كانوا رجالهُ . ثم ان الظروف ساعدت ايضًا على الهياج في تلك

الايام واهمها ان السلطان اصدر امرًا يقضي بالمساواة بين رعاياهُ وكان ذلك الامر بمقتضى معاهدة باريز فلما احسَّ المسلمون بان الترفع عن النصارى ضاع منهم وان الكل اصبحوا سواءً وان معشر النصارى ما لبثوا ان تحرَّروا حتى فاقوهم في الثروة والجاه والعلم وكل امرٍ آخر نقموا عليهم واضمروا لهم الشرّ . وكان في معاهدة باريز بند يقضي على الحكومة التركيَّة بأَخذ الجنود من طوائف المسيحيين كما تأخذهم من المسلمين ولكن الحكومة لم تقم بهذا الشرط لاسباب معلومة ففرضت على النصارى مالاً كثيرًا — خمسين ليرا عن كل شخص — بدل العسكريَّة وكان هٰذا المال فوق الذي يقدر القوم على دفعهِ فتشكوا مرارًا وطلبوا إلى حكومتهم ان تخفف الحمل عنهم او ان تعفيهم من هٰذا المال وتاخذ منهم الرجال فلم تقبل والحت عليهم في سنة ١٨٦٠ الحاحًا زائدًا في دفع المتأخر عنهم من هٰذا المال وكان في ذلك الحين مطران الروم الارثوذكس يونانيًّا لا يعرف لغة الاهالي واخلاقهم فجاءهُ القوم يطلبون توسطهُ في رفع هٰذا المال وتجمهروا حول مكنهِ فأَراد تفريقهم بقوة الجند وكتب الى الوالي يقول لهُ ان النصارى في حالة الهياج والثورة من جرَّاء ضرب الاموال العسكريَّة الفادحة و يرجوهُ تفريقهم عن مسكنهِ ففرح الوالي بهذه الكتابة وحفظ الورقة في جيبهِ لانهُ حسبها دليلاً على ما كان ينوي الاحتجاج بهِ حين اللزوم من بعد المذابح الَّتي كان يريد اتمامها حتى اذا سئل عن الامر قال هذه شهادة مطران القوم انهم كانوا عصاةً يريدون الثورة والقلاقل فاخمدنا ثورتهم بقوَّة السلاح

وكان هياج المسلمين في دمشق يشتدُّ يوماً عن يوم بفعل دسائس احمد باشا حتى صار القوم يسمعون اخبار المذابح ألتي حصلت في حاصبيًّا وراشيًّا وزحله ودير القمر و يطربون وكانوا يحسبون لابطال زحله حساباً كبيراً فلما جاءتهم الانباء بسقوطها وذبح رجالها زينوا المدينة واقاموا الافراح والنصارى من حولهم ينظرون ولا يجسرون على الاعتراض الاَّ ان بعض الوجهاء وارباب الفضل من المسلمين لم يرق لهم هٰذا الصنيع فاطفأوا الانوار وداروا على الناس يحرّضونهم على التعقل والسكينة فلم تجدِ مساعيهم المحمودة نفعاً لان الحكومة واشقياء الاهالي كانوا اقوى منهم وسوف نذكر اسماء هؤلاء الافاضل في آخر هٰذا الفصل حتى يحفظ ذكرهم وذكر فضلهم في التاريخ اقراراً بجميلهم واعترافاً باحسانهم . وكان هياج المسلمين كما قلنا يشتد يوماً عن يوم والنصارى يهانون ويشتمون ويرون كل بليَّة ويتظلمون فلا ينصفون حتى رأوا ان الالتجاء إلَى عدل الحكومة عبث فلزم اكثرهم بيوتهم وانقطع التجار والمستخدمون منهم عن الخروج إلَى اشغالهم وجعلوا يقضون الليل والنهار في الصلاة والتفكير والهم والتدبير والشرّ يزيد يوماً عن يوم حتى صار الموت قريباً منهم

وكان القناصل يرون هذه الامور و يبعثون بالتقارير إلَى دولهم حتى اذا زاد الخطب اجتمع الكل في بيت قنصل الانكليز بناءً عَلَى طلبهِ وتداولوا في الذي يجب اتخاذهُ من الطرق لمنع المذابح فقرّروا ان تفتح بيوتهم للملتجئين اليها اذا حصل ذبح او نهب وان يحذروا الوالي تحذيراً من سوء العواقب وانتدبوا احدهم وهو قنصل الدولة اليونانيَّة

لمخابرة الوالي في هٰذا الامر بالنيابة عنهم لانهُ كان يعرف اللغة التركيَّة فذهب الرجل وحاول جهدهُ ان يستفيد ويفيد في اخماد الهياج ولم يفلح وكان احمد باشا في اول الامر يتجاهل ويظهر ان البلاد في راحة وامان ثم لما مرَّت الايام ولم يعد في امكانهِ الانكار صار يعتذر ويحتجُّ بقلة العساكر لديهِ وعدم امكانهِ رد الاشقياء من الاهالي عما يضمرون ثم بدأ باظهار التعجب والاهتمام ممَّا صارت اليهِ الحالة ولكنهُ لم يأمر امرًا واحدًا من مقتضاهُ منع العساكر واوباش المسلمين من التعرُّض للمسيحيين وكان كلما اشتدَّ بهِ الهياج في جدالهِ مع جناب القنصل المفوَّض بمخابرتهِ يقول لهُ ان النصارى قد عصوا امر الدولة وهم يحاولون خلع طاعتها وعندي الادلة عَلَى ذلك من كتابة اساقفتهم ورؤَساء دينهم . ثم ذهب القناصل برمتهم إِلَى دار الوالي والحوا عليهِ الحاحًا شديدًا في ان يعمل عَلَى تحسين الحال فلم يرَ بدًّا من اجابة طلبهم ووعدهم بعمل ذلك فاصدر امرًا الى عامة الناس والعساكر بالتزام السكون وعدم التعرض للنصارى في امورهم وعاد هٰذا الامر ببعض المطلوب فاحسَّ النصارى بانفراج الضيق نوعًا وارسل الوالي وراء عمال الحكومة منهم يحملهم عَلَى الطمانينة ويأمرهم بالحضور لاستلام اعمالهم فقاموا بالامر ورأَوا ان الهياج قلَّ وانشرحت بذلك الصدور وكاد الناس يصدقون ان المياه عادت إِلَى مجاريها

ولكن احمد باشا لم يكن ينوي ابقاء السكينة زمانًا فعاد إِلَى الدسائس وعاد العساكر والاهالي إِلَى هياج اشد هولاً من الاول وعاد النصارى إِلَى الاختفاء والمواراة عن عيون الاعداء واحس الجميع

بقرب الخطر فحاول قنصل انكلترا وقنصل اليونان عَلَى حمل بعض الوجهاء من المسلمين عَلَى مساعدتهم في تسكين ذلك الهياج وساعدهم نخبة من اخيار دمشق ممن سنذكر اسماءهم ولكن الامر لم يفد شيئاً فان الاضطراب ظلّ يزيد وزاد شوق الاشقياء إِلَى سفك الدماء زيادةً كبرى وسمع بذلك العرب والمسلمون المجاورون لدمشق فجاؤوها من كل صوب يريدون شفاء ما في انفسهم من الحقد بقتل النصارى ونهب اموالهم . وحدث لسوء الحظ ان الذين سلموا من حاصبيّا وصلوا في ذلك الحين إِلَى دمشق وكانهم جاؤوا بعدوى الذبح والقتل فلم يعد الاشقياء صبر وصار الدروز من خارج المدينة والمسلمون من داخلها يلحون عَلَى الحكومة باصدار الامر لهم بالتقدم للذبح والفتك وهتك الاعراض وسلب الاموال وحرق البيوت . ورأى احمد باشا ان الوقت دنا لاتمام غايته فزاد الطين بلة في انهُ اشاع بين الناس ان النصارى ينوون الهجوم عَلَى حارات المسلمين ليلاً والفتك بهم مع ان النصارى في دمشق من اضعف خلق الله ليس بينهم واحد يعرف طريقة استعمال السلاح ولم يخطر في بالهم غير وقاية انفسهم من الخطر بالاستسلام والاختفاء وصار هذا الوالي اللئيم كلما حضر الصلاة يصف الجنود حول الجامع بدعوى ان النصارى ينوون الهجوم عليهِ حتى وصل كره المسلمين من هذه الاشاعات والمفاسد إِلَى درجة لم يعد من الممكن البقاء عَلَى السلم معها . ثم نقل الوالي عائلتهُ إِلَى القلعة وحصنها بالمدافع ففهم الناس من ذلك ان الوقت قرب وجعلوا يستعدون للعمل عَلَى ملاشاة النصارى عن بكرة ابيهم من دمشق وهاجت الجموع وماجت

وعمّ الخطب وزاد الكرب وبلغ الاستعداد للفتك حدهُ وانقطع كل امل عند النصارى في النجاة

وارسل الوالي بعد كل هذه الامور فرقةً من العساكر إلى باب توما — حارة النصارى — لوقايتهم وكان النصارى قد سمعوا بأخبار الوقاية الّتي اتاها هؤلاء الاتراك في مذابح الشام الاخرى فأيقنوا بقرب الذبح وقالوا ان هذه العساكر ما جاءت الّا للفتك بنا وزاد خوفهم وقلقهم زيادة فاحشة لما علموا من بعض الذين لجأوا إلى بيوتهم من بقيّة اهل حاصبيّا ان هذا الالاي بنفسهِ هو الذي كان في حاصبيّا وساعد على ذبح النصارى فيها فكانهُ اعتاد فعل الشرّ وجاء دمشق حتى يفعل فيها الذي فعلهُ في حاصبيّا وكانت علامات الشرّ تلوح على وجوه العساكر فسلّم النصارى الامر لله وانقطع رجاؤهم من الحياة وصار بعضهم يحاول الفرار والالتجاء إلى بيوت الاخيار من المسلمين وبعضهم يهاجر المدينة سرًّا اذا لم يمنعهُ العساكر من ذلك والبعض الآخر وهم الفريق الاكبر يحاولون استرضاء العساكر وضباطهم ويعطونهم الاموال والهدايا الكثيرة حتى صار افقر اولئك الاتراك الفتاة من زمرة العساكر اغنى من اكثر النصارى وجاهةً وانتقل مال اولئك المساكين كلهُ الى هؤلاء الوحوش الذين أُرسلوا للمحافظة على ارواحهم ففتكوا بهم وخانوا عهد الله وعهد الاسلام وعهد المروءة

ولما علم احمد باشا ان الانتظار بعد كل الذي حصل يضرُّ ولا يفيد وانهُ لم يبقَ على اتمام الامر الّا اعطاء الاشارة جعل يفكر في عمل يهيج المسلمين إلى حدٍّ يدفعهم من عند انفسهم إلى الهجوم وابتداء

المذبحة من دون رأي الحكومة ووجد الواسطة في الحال ذلك ان الاتراك والمسلمين اكثروا من اهانة الدين المسيحي الشريف في ذلك الحين فشكا بعضهم الامر إلى الوالي مرارًا وتكرارًا ولما اراد في آخر الامر فتح القتال امر بضبط ثلاثة اولاد من المسلمين لانهم اهانوا الصليب علنًا وكتفهم وبعث بهم تحت الحفظ الى حارة النصارى ليكنسوا شوارعها جزاء ما فعلوهُ . ورآهم المسلمون عَلَى هٰذَا الحال والعساكر يقولون انهم ذاهبون ليكونوا عبيدًا للنصارى لانهم اهانوا الصليب فأوقفوهم عند مدخل الجامع الاموي وفكوا قيودهم والعساكر لا يعارضونهم ثم دخلوا الجامع وتشاوروا مليًّا في الامر حتى اذا خرجوا بدأ بعضهم ينادي بأعلى صوته « يا لدين محمد . يا لغيرة الدين . يا لله من النصارى الكافرين » وامتدَّ هٰذَا النداء من فم الى فم والتهبت الصدور وتعاظمت الامور وحلَّ القضاء المقدور فهجم رعاع المسلمين عندئذٍ من كل صوبٍ عَلَى حارة النصارى وهم كالذئاب الخاطفة يريدون اطفاء ما في قلوبهم بذبح النصارى وسفك دمائهم وهكذا ابتدأت المذبحة الهائلة .....

وكان بعض الثائرين يقول للبعض الآخر وهم يهاجمون حارة النصارى لا تخشوا مداخلة الحكومة ولا تحسبوا ان العساكر يعارضوننا في هٰذَا الجهاد فاقتلوا النصارى عن آخرهم في هٰذَا النهار واجعلوا مساكنهم مطعمًا للنار واذيقوا نسائهم مرارة العار وتخلصوا من بعد طول الصبر من هؤلاء النصارى الكفار . وأُطلق مدفع على كنيسةٍ للروم الارثوذكس بأمر الوالي ولم يكن فيهِ غير البارود فأصاب حصرًا

واضرم النار فيها وحينئذٍ فطن الناس الى النار فأضرموها في حارة النصارى من كل جانب ودخلوا ينهبون ويقتلون وكان عساكر الاتراك يفتحون الابواب للقادمين ويمنعون النصارى من الفرار ولم ينتصف ذلك النهار حتى صارت حارة النصارى كلها نارًا متقدة وكان منظرها في الليل التالي ممَّا يشيب الاطفال لاسيما اذ كان بعض المساكين يحاولون الفرار من بين انياب النار فتسقط بهم الجدران ويموتون في عذابٍ لا يطاق حتى اذا جاء الصباح واحسَّ الانذال ان السلب والنهب قد تمَّ اعملوا السلاح في الذين نجوا من النار فذبحوا كل من وجدوهُ من النصارى ولم يبقوا عَلَى طفلٍ ولا عاجز وفتكوا بالامهات وهتكوا البنات واتوا كل اشكال المنكر والموبقات وسال دم القتلى في شوارع دمشق غيثًا مدرارًا وعمَّ البلاء الهائل حتى لم يعد يرى في حارة النصارى غير راس ينهال عليهِ الرصاص من بنادق العساكر انهيال السيل وصدر تدقهُ سنابك الخيل واجسام اكلتها النار وصيرتها رمادًا او فحمًا اشد سوادًا من حالك الليل وويل في ويل في ويل . وصعد صراخ الاطفال والنساء إِلَى السماء وجرت دماء القتلى في الشوارع تستغيث من هول هٰذَا البلاء حتى خيل للناظرين ان لم يبقَ نفس نصرانيَّة حيَّة الَّا اللائي خلصهنَّ بعض الاوباش لغايات دنيئة وكنَّ يطلبنَ الموت ويرضينَ بهِ عن طيب نفس بعد الاهوال الَّتي رأينها وذهبت الالوف فريسة حقد الاتراك ودسائسهم فيا أيها القارئ الكريم مثّل لديك باقي هٰذَا الهول الفظيع ودع القلب يتقطع وخلِّ العين تدمع والنفس تتوجع والفؤاد يتفجع فقد قتل في ذلك اليوم

ستة آلاف نفس بريئة بعد ان تحملت مرارة العذاب الذي لا يطاق زماناً طويلاً ونال الاشقياء مرامهم وكانما الارض خلت من الكرام فيا لله يا لله من شرور الظالمين

هنا ينتهي القلم من وصف امور القتل والذبح والتعذيب والهتك التي اتاها الاتراك ومن ساعدهم رفقاً بقرّاء هذا الكتاب ولكن الله سوف يجزي هؤلاء الوحوش شرّ الجزاء ويذيقهم المرّ والعذاب في يوم الحساب

على ان الارض لم تقفر من الكرام في ذلك الزمان المرّ ولا يخلو زمان مهما كثر توحش اهله من بقيّة تبقى من اهل الفضل والمروءة فقد وجد في وسط اولئك الوحوش الظالمين رجلٌ عظيم المقام رفيع القدر عالي الهمة كثير التمسك بفضائل الاسلام شريفٌ في الحسب والنسب اميرٌ ساد بالسيف وساد بالادب بطلٌ مغوار وليثٌ كرار شهد الحروب والاهوال وفعل فيها فعال الابطال وكان اخصامهُ في ايام عزهِ اناسٌ من المسيحيين فحاربهم كما يحارب الرجل الرجال ولما خانهُ الدهر وضاعت مملكتهُ من يدهِ آثر الانزواء في دمشق ليقضي بقيّة عمرهِ الشريف في ما يرضي الله وكان يكرهُ قتل الضعفاء بالدسيسة والغدر وينهى عما يحرمهُ دين المسلمين فظهر من بين تلك الجموع المنحطة مثل لؤلؤة في وسط حجارة صماء سوداء وعلت نفسهُ علوّاً كبيراً عن دسائس الاتراك ومكايد المفسدين وفعال المتوحشين. هو السيد السند والفرد الامجد والبطل الاوحد الامير الخطير والمليك الشهير عبد القادر الحسني الجزائري صاحب بلاد الجزائر طيب الله ذكرهُ

ورحمهُ الف رحمة ورحمة واكثر الله من امثالهِ بين الآدميين . هٰذا هو الرجل العظيم الذي اشتهر بالمروءة والنخوة بين جماعة من المفسدين والجبناء والساقطين واللؤماء والغادرين

وكان هٰذا الامير العظيم قد رأى امارات الشرّ ونيّات السوء بادية عَلَى الوجوه ولحظ من تقاعد الحكام عن ردع الاشقياء ان لهم ضلعاً في هذه الامور او انهم هم الذين كانوا يثيرون الخواطر بقصد ان يقدم الناس عليها فاجتمع يوماً بوجوه المسلمين في حضرة احمد باشا الوالي وبعد المداولة الطويلة اقنعهم ان مثل هٰذا الغدر بفئة ضعيفة لاتبلغ عشر عدد الساكنين في دمشق (هٰذا غير الجنود وغير ان النصارى كانوا لا يعرفون امور القتال) يعد جبناً ونذالةً وعاراً عَلَى المسيء وان الايقاع بآل الذمة ما داموا في طاعة الحكومة الاسلاميَّة مناف للشرع الشريف ولا يجوز في دين من الاديان . فلم يرَ الوالي بدًّا من التسليم برأيهِ واتفق معهُ عَلَى ان يعمل عَلَى تهدئة الخواطر والذود عن المسلمين حتى ان الامير عبد القادر برَّد الله ثراهُ لما علم بذهاب الالاي الذي ذكرناهُ الى حارة النصارى قبيل المجزرة اطمأنَّ بالهُ وظنَّ انهُ قام بالواجب عليهِ ونجح في فعلهِ الشريف . ولكن الحاكم التركي ومن معهُ لم يفكروا في شرف ولا في شرع غير الرغبة في القتل وحب السلب والنهب فخانوا العهود واتوا ما اتوا ممَّا مرَّ ذكرهُ ولما شعر بذلك الامير بعث رجالهُ في الليل في كل ناحية من انحاء دمشق فجعلوا يدورون في جوانبها ويفتشون عَلَى النصارى فيقودونهم إِلَى سراي الامير اينما وجدوهم ويردون عنهم جموع الهائجين . ومضى

الليل كلهُ والنهار التالي والامير عبد القادر يجمع هؤلاء المساكين في بيتهِ وهو يطعمهم ويسقيهم من مالهِ ويواسيهم ويلطف احزانهم ويعدهم بتخفيف الكرب ويهدئ روعهم وما سمع الناس بأشرف من هٰذا السيد العظيم . وكان هو يخرج بنفسهِ في احيان كثيرة فيمرُّ في الشوارع التي يكثر القتل فيها ويرد القاتل عن فريستهِ بيدهِ الشريفة ويقصد الحوانيت والكنائس ومنازل القناصل حيث اجتمع الفارون بالمئات والالوف فيخلصهم ويقودهم إلى دارهِ ثم يعود إلى تخليص غيرهم وهو كلما لقي واحداً من رجالهِ الكرام يفعل هٰذا الفعل شجعهُ ورجاهُ الاجتهاد في ذلك العمل المبرور حتى اجتمع لديهِ حوالي اثني عشر الف نفس فضاق بيتهُ ذرعاً عن مواواتهم ورجا الوالي الوحشي احمد باشا ان يأمر بقبولهم في القلعة بعد ان تعهد لهُ هٰذا التركي باعظم الايمان انهُ لايمد إلى هؤلاء المساكين يد سوءٍ فوضع هؤلاء المنكودو الحظ في القلعة حيث ظلوا اياماً واسابيع بلا كساءٍ ولا غطاءٍ ولا غذاءٍ وذاقوا كل لون من الوان الشقاء بعد ذلك المصاب وذلك البلاء والله يعلم مقدار حسرة هؤلاء المساكين على الذين فقدوا لهم وكانوا أعزّ الناس لديهم وعلى الذي ضاع منهم وعلى ما صاروا اليهِ من الهوان سيما وان اكثرهم كانوا يخافون ان تكون القلعة شركاً لهم مثل سراي حاصبيّا ودير القمر وراشيّا وان تفتح الحكومة يوماً ابوابها فتامر الدروز والاتراك بقتلهم عن آخرهم كما فعلت باخوانهم من قبلهم وقوي فيهم هٰذا الظن يوماً اذ جاء ضابط تركي من قبل الوالي وامر ان يفصل النساء من عن الرجال لغايةٍ لم يعلمها القوم فأيقنوا بالهلاك وضاعت آمالهم في

السلامة واستعدوا للموت وهم يطلبون الرحمة للذين سبقوهم إلى دار البقاء والذين امكن لهم السلامة في دار الشقاء ولكن هٰذا لم يحصل لحسن الحظ وكان اكثرهُ بمساعي ذلك الشريف سيد المروءة والبسالة ورب الانسانيَّة والشهامة الامير عبد القادر واما مساعي القناصل فلم تجدِ نفعًا لان الحكام كانوا يعدونهم في جملة الاعداء ويريدون الفتك بهم

ولما كثر عدد اللاجئين إلى بيت الامير عبد القادر رحمهُ الله عداد حسناتهِ — هٰذا غير الذين ارسلوا إلى القلعة — قصد اشقياء المسلمين من دمشق ان يقتلوهم عن آخرهم ونقموا على هٰذا الامير العظيم كيف انهُ اعان النصارى عليهم فتجمهروا حول دارهِ افواجًا كثيرة وبدأوا يصيحون ويصخبون ويطلبون اليهِ تسليم النصارى في الحال او يحرقون بيتهُ ويهلكونهُ مع الذين حماهم وظنوا ان عبد القادر مثل بعض انذالهم يخاف من التهديد او يؤثر فيهِ الوعيد . فلما سمع هٰذا الضرغام نداءهم امر بجمع رجالهِ في الحال حول قصرهِ وكانوا من نخبة الابطال المجرَّبين حضروا المواقع الهائلة مع سيدهم الباسل وانتصروا على جيوش الغرب الاقصى يوم حاربهم سلطانها في المولايا وكان جيشهُ ستين الفًا وهم الفان وخمسمائة سبعٍ من سباع الحرب . هؤلاء حافظوا على الولاء لمولاهم الطيب الذكر وجاء الذين سلموا من المعارك منهم معهُ إلى دمشق فلما ناداهم في ذلك اليوم العصيب داروا بهِ في الحال من كل جانب حتى اذا رأى اشقياء دمشق مناظرهم وهيئة الاقدام تلوح عليهم عولوا على الفرار من وجههم وعند ذلك تقدم الامير رحمهُ الله

وحده إلى وسط اولئك الانذال الثائرين وخاطبهم بما معناه ان خسئتم يا كلاب الاسلام ويا انذال الانسانيَّة . أبمثل هٰذا تكرمون النبي وتطيعون اوامرهُ الكريمة يا اكفر الكافرين . أبمثل هٰذا اوصاكم رسول الله في آل الذمة الآمنين في ظلكم . او بمثل هٰذا تقضي عليكم البسالة العربيَّة سحقًا لكم من انذال خائنين تغدرون بالنصارى وتفتكون بهم وهم اقل منكم عددًا واضعف حالاً وتعدون هٰذا شهامة وهو العار بنفسهِ فارجعوا في الحال او اني لا اغمد هٰذا السيف حتى ارويهِ من دمائكم وآمر رجالي بالهجوم عليكم فلا يبقى منكم جبان يخبر بقصة اخوانهِ واعلموا انكم سوف تتوبون وتندمون حين يأتيكم الافرنج للدفاع عن هؤلاء النصارى المظلومين . حين يجعلون جوامعكم كنائس ويجعلونكم عبرة للمعتبرين . فارجعوا الآن وانتهوا عن غيكم او اجعل هذه الساعة آخر عمركم واقتص منكم عَلَى ما اتيتموهُ من المنكر والاثم الفظيع

وكان لهذا المولى العظيم مهابة في القلوب ارجفت اولئك الانذال الخائنين فعادوا عَلَى اعقابهم خاسرين وسلم ١٢ الف نفس بواسطة هٰذا الشهم الفريد . وسوف يبقى ذكرهُ ما ذكر الشرف وما ذكرت المروءة

واما كرام المسلمين واصحاب العقل فيهم من اهل دمشق الذين دافعوا ما استطاعوا عن المسيحيين فكثيرون لم نعثر بأسمائهم كلهم ولكننا نذكر هنا بعضهم او اشهرهم قيامًا بواجب الشكر لاناس خدموا المروءة حين كانت في حاجةٍ كبرى الى بنيها وندون اسمائهم مع اسم سيد اصحاب النخوة والمروءة — الامير عبد القادر — حتى تشهد هذه السطور لهم بالفضل باذن الله في كل اين وآن قدر ما شهدت

لمعشر اللؤماء وحكام الاتراك بضده . فمن هؤلاء الافاضل الشيخ سليم العطار والشيخ مسلم الكزبري والاثنان من وجهاء دمشق وكرامها . ومنهم صالح اغا المهايني . وعمر اغا العابد . والعلامة الشيخ عبد الغني الميداني وكان لهؤلاء الثلاثة الكرام فعال تذكر في قسم الميدان خلصوا فيه الوفا من الذبح وحموهم في منازلهم وكان اشهرهم صالح اغا المذكور وهو الذي رد انذال الدروز عن دمشق ولولا همته لدخلوها وقتلوا كل من فيها من النصارى . ومنهم هاشم اغا متسلم القلعة كان رجلاً عاقلاً حازماً اجتمع بالامير عبد القادر مراراً وعاونهُ على صيانة النفوس البريئة وكان يجاهر بمقاومة الوالي في فعلهِ ويقول انهُ يطلق الرصاص على كل من يقرب القلعة بسوء ما دام النصارى فيها . ومنهم آل حمزة العلماء الاعلام والسادة الكرام اخصهم المرحومين محمود افندي مفتي دمشق سابقاً واخوهُ اسعد افندي الذين ادخلوا إلى بيوتهم جمعاً غفيراً من الهاربين وظلوا اياماً يمولونهم ويدافعون عنهم فحفظ لهم النصارى كل ذكر جميل وهم يكرمونهم الى هذا اليوم اكراماً كبيراً

هذه خلاصة الحكاية الهائلة قصصناها هنا فليتأمل القارئ في هذه الفعال وليقل في نفسهِ ما شاء . وقد كان عدد الذين قتلوا في دمشق وضواحيها ستة آلاف نفسٍ والذين قتلوا في بقية الانحاء يقربون من هذا العدد وكل ذلك حدث في خلال شهر يونيو من سنة ١٨٦٠ السوداء . واما الذين نكبوا واصبحوا بلا مأوى ولا مال ولا ملجأ فيزيدون عن مائة وخمسين الف نفس بشرية . وعدد الذين صاروا في جملة الارامل والايتام لا يقل عن عشرين الفاً . وعدد البيوت

ألتي أحرقت بالنار وكانت لابرياء النصارى حوالي سبعة آلاف بيت. وعدد الذين ماتوا في ذلك الشهر من تأثير الرعب والحزن المفرط والقلق الشديد والفقر بعد العزّ لا يقل عن اربعة عشر الفاً . ومقدار الذي سلب ونهب من المال لا يقل عن ثلاثة ملايين جنيه او يزيد

تأمل رعاك الله في هذه الامور واطلب إلى الله ان يخلص الارض من الظالمين

فصل

في ما تمّ بعد المذابح

الاضطراب العام

كانت النتيجة الاولى من هذه المذابح الوحشيّة والفظائع الهائلة ان المسلمين في جميع انحاء الشام جعلوا يفكرون في قتل جميع النصارى واستئصالهم والاستئثار بالبلاد واملاكها ولكن الظروف منعت من اتمام هذا القصد في اماكن عدة منها حلب حيث جاد المسيحيون بالاموال الوافرة رشوة للاتراك ومن كان يعاونهم على الشر. ومنها القدس الشريف حيث كثرت الاحزاب بين المسلمين ولم يمكن لهم الاتفاق على تعيين يوم الشرّ. ومنها عكا حيث كان الحاكم التركي يوزع السلاح والذخائر على المسلمين وعيّن يوم المجزرة فوفدت في ذلك اليوم على مينا المدينة بارجة هولانديّة ردّت هؤلاء الانذال عن قصدهم ومثل هذا يقال في بقيّة المدن الّتي لم يكثر فيها الذبح والسلب

حضور النجدات

ولم تزد مدة هذه الاهوال الهائلة عن شهرٍ هو شهر يونيو

(حزيران) الاسود من سنة المصائب ولولا ان تصل القوات العسكريّة من اوربا بناءً على طلب القناصل لكان الشرّ اعظم كثيراً ولكن الله لطف بعباده ووصلت بوارج بعض الدول في آخر شهر يونيو المذكور فزارت اكثر مدن الشام وارهبت الذين كانوا يستعدون للفتك بالنصارى وكان امير البحر الانكليزي مارتن وامير البحر الافرنسي جهن من الابطال واصحاب الحزم القيا المراسي في مينا بيروت ومنعا استمرار المجازر الوحشيّة بكل واسطة ممكنة ريثما وصل الجيش الافرنسي. وكانت دول اوربا قد تخابرت في امر سوريّة ومصائبها واقرّت على ارسال جيش اوربي لاعادة الامن ومنع المذابح في بلاد الشام ولما كانت فرنسا يومئذٍ في اوج عزها فقد كلفتها اوربا بالنيابة عنها بهذه المهمة على شرط ان تخرج الجنود الافرنسيّة المظفرة من البلاد حال استتباب الامن ورجوع المياه إلى مجاريها فتعهدت الدولة الافرنسيّة بذلك وضربت موعداً للجلاء وارسلت سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال بوفور داوتبول وصل مدينة بيروت في السادس عشر من شهر اغسطس (آب) سنة ١٨٦٠

مؤتمر باريز

واما ارسال هذه الجنود الافرنسيّة والتدابير الاخرى الّتي قامت بها اوروبا في ذلك الحين فكان بمقتضى قرارٍ من مؤتمر دولي اجتمع في باريز في اليوم الثالث من شهر اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان اعضاؤهُ ممثّلي دولة بريطانيا العظمى وفرانسا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا.

وقرّ رأي هذا المؤتمر على قرارين اولها يتعلق بكيفيّة تداخل دول اوربا في امور الشام وكيفيّة ارسال الاساطيل والجيوش اليها وقد ذكرنا ذلك . والثاني تعهّد من وكلاء الدول مآله ان دولهم لا تحاول اكتساب شيء من الارض التي تزورها عساكرها او بوارجها وانها لا تعمل على زيادة نفوذها ولا نوال امتياز لمتاجرها ولا اخذ حق من الحقوق ليس لغيرها من دول اوربا في تلك البلاد . واضافوا على هذا التعهد عبارة فحواها انهم يرون ان معاهدة باريز (سنة ١٨٥٦) التي تقضي بمساواة الطوائف العثمانيّة والعدل في الاحكام وبقيّة ما وعد السلطان باجرائه لم تتم وهي تلح على الباب العالي باعطاء الاوامر المشددة واتخاذ الطرق الفعالة لتنفيذ هذه التعهدات . وكان في ذيل هذه المعاهدة بند هذه ترجمتهُ

سياسة الدولة التركيّة

« ان معتمد الباب العالي يذكر عهود الوزراء النائبين عن الدول العظمى الموافقة على هذه المعاهدة ويتعهد بابلاغها الى بلاط ملكه وبالاشارة الى ان الباب العالي قد استعمل قوتهُ في انفاذ الرغبات المسطورة في هذه المعاهدة وانهُ سوف يظل على استعمال قوته لهذا الغرض »

ولم يسمع الناس بقول هراء اكثر من هذا يقول فيه وكلاء الدول العظمى ان الباب العالي اتى ما في طاقته لاجراء العدالة والاصلاح وانهُ يثق باستمراره على هذه الخطة في حين ان الارض برمتها تعلم اليوم كما كانت تعلم في سنة ١٨٦٠ ان المذابح والاهوال ما تمت الاّ بأمر

الباب العالي وثبت ذلك للدول الافرنجيّة رسميًّا من تقارير قناصلهم المتواصلة وقد باح نجيب باشا يومًا بهذا السرّ وكان واليًا على سورية من بعد ارجاع السلطة التركيّة اليها في سنة ١٨٤٠ اذ قال لاحد عمال الدولة الانكليزيّة ان «الدولة العليّة لا تقدر على حفظ سيادتها في سوريّة الاّ اذا ابادت الطوائف النصرانيّة» وقد مرّ ذكر الكتاب الذي وقع في يد احد القناصل وكان من احمد باشا والي دمشق إلى السرعسكر في بيروت يقول لهُ فيهِ بصريح العبارة ان لا تتعبوا سركم في اخماد الهياج الحالي والدفاع عن النصارى فان القيام عليهم وقتلهم بأمر الباب العالي . ولو يترك الاتراك على رأيهم لما ابقوا على نصراني ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ولم يزل بعض مشايخ الدروز احياءً يقولون ان الاوامر الرسميّة صدرت اليهم من دولة الاتراك بالقيام على النصارى وقتلهم او تساعد الحكومة النصارى على قتل الدروز وكان الحكام يوبخونهم على كل تقصير يبدو منهم او على كل رحمة تظهر من بعض رجالهم حتى ان النساء اللائي لم يمسسهنّ الدروز بشرٍّ لم يخلصنَ من اوباش الاتراك الظالمين ولم يزل الذين شهدوا تلك الاهوال من منذ ٣٥ عامًا ناقمين على الاتراك لا على الدروز . هذا الذي كان ينويهِ الوحشان الظالمان خورشيد باشا والي بيروت واحمد باشا والي دمشق ولولا صعوبة الامر لقتلا كل نصراني في البلاد ولكن الله لم يسمح بكل هذه الاهوال

ومن اغرب حكايات هذه الرواية الهائلة ان الحكومة التركيّة حاولت منع الخبر عن الذين سلموا من المذابح والاضرار بهم على قدر

طاقتها وارادت ان تخفي كل حقيقة عن العيون من بعد ان علمت ان دول اوروبا سترسل رجالها إلَى بلاد الشام وتحقق الفظائع الّتي ذكرنا بعضها. وكان من امر خورشيد باشا انهُ جمع الذين سلموا من النصارى او الذين امكن لهُ استدعائهم في شهر يوليو من سنة ١٨٦٠ او بعد المذابح بأيام قليلة وجمع بهم بعض مشايخ الدروز و تظاهر بحب الرعيّة والميل إلَى السلام فاضطرهم إلَى المصالحة على هٰذا الشرط الغريب وهو « ان يمحي من الاذهان ذكر الذي فات من اولهِ إلَى آخرهِ وينسى الماضي بكل حوادثهِ. وانهُ قد تمّ الاتفاق وتقرّر بعد الاتكال على الله تعالى ان يعقد الصلح بين الطائفتين (النصارى والدروز) على الشرط الذي مرّ ذكرهُ وعلى شرط ان كل الذي حدث في سوريّة ولبنان من اول الامر إلَى يوم الصلح لا يوجب حقًّا ولا يجوز ان تقام بسببهِ دعوى ولا ان تبدى مطالبة من اي نوع كانت لا في الحال ولا في الاستقبال و يسري هٰذا الاتفاق على الطرفين » فكأنّ القصد الوحيد من هٰذا الصلح كان ان ينسى النصارى الذي حلّ بهم و يعدلوا عن المطالبة بحقوقهم وان الذي حرق بيتهُ لا يشتكي مصابهُ والذي سرق مالهُ ووقعت اليد على املاكهِ لا يراجع السارق في امرها ولا يطلب استرجاعها والذي مات احبابهُ واقاربهُ واصبح وحيدًا بلا عضد ولاسند لا يحق لهُ المطالبة بدم اهلهِ. هٰذا هو العدل التركي فانعم بهِ من عدلٍ واكرم بهِ من انصاف. ولولا ان الدول النصرانيّة تتداخل تداخلاً قانونيًّا وتضطر الدولة التركيّة إلَى التعويض عما فات واعطاء رعاياها بدل بعض الشيء مما فقد من قبضتهم لانتهى الامر بسكوت النصارى عن كل ما حلّ بهم والسلام

﴿ قرار الامم الاوربيّة ﴾

ولما انتهى خبر هذه الاحوال ٱلّتي تشيّب الاطفال إلَى الديار الاوروبيّة هاجت الامم المتمدنة وماجت ودارت سوق الاضطراب وراجت وضجت الناس من هول هذه الفظائع ٱلّتي ترتعد لها الفرائص وتقشعرّ منها الابدان فقامت على حكوماتها تطلب اليها التعجيل في اسعاف الذين اوقعهم سوء حظهم في مخالب الغادرين والظالمين وكانت الدولة الافرنسيّة في مقدمة الدول ٱلّتي تطلب التعجيل في مقاصة المفسدين واعادة الامن إلَى ربوع الشام البهيّة ٱلّتي عمت فيها الاهوال وانتابتها البليّة ولسوء الحظ كانت وزارة انكلترا تخشى عاقبة ما تريدهُ فرانسا من ارسال جيش افرنسي إلَى الشام فلم تسلم بالامر الّا بعد ان اضطرها الرأي العام إلَى الاذعان والعمل على خلاص الذين سلموا من مسيحيي الشام بكل واسطةٍ ممكنة ولما تمّ الاتفاق على ذلك ارسلت الهيئة الآتية لمقاصة الجانين والتعويض على المصابين واعادة الامن والراحة إلَى بلاد السوريين وهذه هي الهيئة المذكورة : —

﴿ ١ ﴾ فؤاد باشا كان الصدر الاعظم وانتدب بمهمة فوق العادة واعطي قوةً مطلقةً ليفعل في بلاد الشام ما اراد باسم السلطان عبد المجيد على شرط ان ينهي المصاب بالتي هي احسن . وفد على بيروت في السابع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ وكان القصد من تعجيلهِ في السفر العمل على اخفاء الحقائق وعرقلة المساعي الحميدة ممّا تراهُ في ما يجيء

﴿ ٢ ﴾ قوّة عسكريّة افرنسيّة من ستة آلاف مقاتل

يرأسها الجنرال بوفور داوتبول وصلت بيروت في السادس عشر من شهر اغسطس اي بعد وصول فؤاد باشا بشهر وكان القصد منها عمل الذي لم يمكن الاركان إلى عساكر الاتراك بحملهِ من المحافظة على الارواح ومنع الاعتداء والاقتصاص من المجرمين

٣ مؤتمر دولي من وكلاء الدول العظمى صاحبة الشأن والنفوذ وهي بريطانيا العظمى وفرانسا وبروسيا وروسيا والنمسا عقد اجتماعهُ الاول في مدينة بيروت في الخامس من شهر اكتوبر سنة ١٨٦٠ وكان القصد منهُ النظر في الذي حدث والذي يجب حدوثهُ وتقرير الامور الواجب عملها في الحال والاستقبال وسوف نتتبع اعمال هٰذا المؤتمر بالتفصيل الذي يسمح بهِ المقام ونبين كيفيّة سعيهِ وما نتج عنهُ

هذه هي طرق المعالجة ألّتي ارتأتها دول اوروبا وكان المظنون انها تعود بالفائدة المطلوبة . وكان القاتل الغادر الخائن الوحش الضاري والنذل الجبان خورشيد باشا الذي تمت اهوال لبنان وبيروت والسواحل بأمرهِ وعلى يدهِ يضحك مسروراً من نتيجة دسائسهِ واصحاب العقل والانصاف من المسلمين والنصارى يظنون ان عزلهُ واعدامهُ يكونان اولى اعمال فؤاد باشا لان هٰذا الوزير جاء مفوضاً تفويضاً مطلقاً في كل امرٍ وامر باعدام كثيرين غير هٰذا الطاغية ولكن خورشيد باشا ظلّ في وظيفتهِ وكان خورشيد باشا جباراً عنيّاً . وشعر الاميرال مارتن قائد الاسطول الانكليزي الذي كان راسياً في بيروت يومئذٍ بازاء الاسطول الافرنسي ان بقاء هٰذا الجاني الخائن في وظيفتهِ وفي

قيد الحياة لا يخلو من قصد سيء و يعود بأوخم العواقب فجعل يفكر في طريقة لعزله وصدف يومئذٍ ان هذا الوحش ارسل من قبل فؤاد باشا إلى اللاذقيّة في مهمة فظنّ امير البحر مارتن انهُ لن يعود منها الاّ محمولاً على آلة حدباء كانت أولى بهِ من كل بشري مات من يوم قامت لبني آدم قائمة ولكن الظن خاب وعاد الرجل فلم يعد الاميرال يطيق على هذا الخداع المنكر صبرًا وكتب في الحال إلى فؤاد باشا كتابًا رسميًّا نرى ان ننقلهُ هنا مترجمًا ترجمةً حرفيّةً لان كلامهُ يشفي العليل ويروي الغليل ويدل على شيء من الحزم والشهامة تفرح القلب في وسط هذه المصائب السوداء الّتي عددناها وهذا نص الكتاب

« لقد اصاب العالم المتمدن ضرٌّ عظيمٌ من جرّاء الفعال الوحشيّة الّتي وقعت على سكان سوريّة من المسيحيين وكان عمال الدولة التركيّة يشاركون عمدًا في هذه الفظائع بسماحهم للعساكر وللمسلمين من الاهالي ان يساعدوا الدروز فيها وان يشاركوهم بعد انتصارهم على المسيحيين في قتل الرجال وفي ارتكاب افظع المنكرات مع النساء والبنات والاطفال . وليس يمكن للعالم المسيحي ان يطيق صبرًا على هذه الفظائع ولا يجوز لهُ ان يسكت عنها ويتأخر عن مجازاة الذين ارتكبوها ومن الواضح ان اوربا لا تكتفي بأمرٍ الاّ اذا كان يمنع تكرار مثل هذه الفظائع منعًا تامًّا

« ثم ان الدولة التركيّة تفقد كل ما لها من الاعتبار اذا هي لم تفِ العدالة حقها من نفسها وبدون ان تجبر على مثل هذا العدل والارجح ان السلطة تنزع من يدها اذا ظهر منها تقصيرٌ في هذا الامر

الواجب . فاذا كان من نيتها اجتناب مداخلة الدول وجب عليها ان تجاهر في الحال مع غيرها من الحكومات المتمدنة بنفورها من هذه الفعال المعيبة ٱلّتي حصلت في سوريّة وان تقرن القول بالعمل فتنصف الذين يقاسون الاهوال انصافًا تامًا وتعاقب الموظفين الذين اشتركوا في الفظائع عقابًا ظاهرًا للعيان وعلى قدر جريمتهم . واما مجازاة بعض الاصاغر فأمرٌ يوجب الهزء والازدراء ولا ينتج عنهُ الامتناع عن العود إلى مثل هذه الجرائم الفظيعة في المستقبل

« وعلى ذلك فمن الواجب ان يعاقب في الحال اعظم الموظفين الذين اسقطوا منزلة وظائفهم السامية بالاشتراك في هذه الفظائع او العلم بها والسكوت عن البلايا ٱلّتي انتابت المسيحيين من سكان سوريّة . وبلغني ان خورشيد باشا سيظل على السيادة في ولايتهِ فعسى ان لا يكون في النيّة ابقاؤُهُ على السيادة ٱلّتي جلب عليها هٰذَا العار بفعلهِ ولما كان النظر في اعمال القسوة الهائلة ٱلّتي يظن انهُ اشترك فيها عن نفسٍ طيبة ممّا يوجب الاهتمام وكنت انا مسؤُولاً مع غيري الآن عن المحافظة على ارواح المسيحيين في هذه البلاد اعترضت هٰذَا اعتراضًا على بقاء خورشيد باشا رئيسًا في منصب تتوقف عليهِ سلامة الالوف ٱلّتي اظهر لها سعادتهُ كل هٰذَا الكره وهٰذَا التراخي عن وقايتها »

الامضا مارتن

هٰذَا هو نص الكتاب الذي ارسلهُ امير البحر الباسل الى الوزير التركي المحاول . ولكن عباراتهِ القويّة لم تبقِ لفؤاد باشا مجالاً في الروغ فبادر في حال وصولهِ إلى عزل خورشيد باشا ووضعهِ في السجن

وفعل مثل ذلك في كاتم اسراره واثنين آخرين من اعوانهِ الاتراك وكان لهذا الصنيع تاثيرٌ حميدٌ للغاية نتج عنهُ فتور الهمم الامّارة بالسوء وقعود الوحوش عن السعي وراء قتل الباقين من النصارى

وذهب فؤاد باشا من بيروت إلَى دمشق فوصلها في التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ وقوبل فيها كما يقابل السلطان وهناك شرع في التحقيق ومجازاة بعض الوحوش الخائنين في الحال فقتل الوالي احمد باشا بلا امهال . ويرجح العارفون ان سبب السرعة في قتلهِ هو ان الرجل عمل بأمر فؤاد باشا نفسهِ ورغبة السلطان بعينهِ في قتل الابرياء فعاجلهُ فؤاد باشا برصاصةٍ قتلتهُ قبل ان يبوح بالامر ويفشي هٰذَا السرّ . وكان الشاهد عليهِ مدة التحقيق بالاشتراك مع الجانين وتحريضهم على القتل اناسٌ من المسلمين وفي مقدمتهم موظف تركي اسمهُ صالح بك زكي وهو الذي حاول ان يخلص النصارى من الذبح وكان قائدًا لنفر من الجند فجاءهُ الامر بما أثناهُ عن عزمهِ . واعدم في دمشق ايضًا ذلك الوحش الضاري لا رحم الله لهُ ذكرًا نريد بهِ النذل الخائن عثمان بك الذي كان في حاصبيًّا يوم مذبحتها . واعدم معهُ ايضًا ثلثة من ضباطهِ ومائة وسبعة عشر جنديًّا من وحوش الاتراك الذين ثبت اشتراكهم في المذابح وكان اكثرهم من الباشبزق واُعدم ستة وخمسون رجلاً من مسلمي دمشق ونفي حوالي اربعمائة منهم إلَى الولايات القاصية . وفرضت الحكومة التركيَّة على المسلمين في دمشق مالاًمقدارهُ ٢٠٠٠٠٠٠ ليرا وهٰذَا لايبلغ عشر الذي نهبوهُ من النصارى ولكن هٰذَا القليل لم يجمع ايضًا والذي جمع منهُ لم يصل

إلَى اصحابهِ فقد زادت خسائر النصارى في دمشق وحدها عن مليوني ليرا في ذلك الشهر الاسود غير قيمة الستة آلاف نفس ٱلَّتي ذهبت ضحيَّة التعصب والفساد

وعاد فؤاد باشا إلَى بيروت في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٠ وارسل يطلب بعض مشايخ الدروز ويتهددهم بالعقاب اذا هم امتنعوا عن الحضور فأطاع هٰذَا الامر ١٤ منهم ورفضهُ ٣٣ واوقع فؤاد باشا العقاب على الجميع بلا محاكمة فعزلهم من مناصبهم وجردهم من كل شرف ورتبة ثم شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة بعض المجرمين وحوكم فيها طاهر باشا وخورشيد باشا وثلاثة غيرهما من الاتراك وسبعة من مشايخ الدروز فحكمت على الدروز منهم بالاعدام وعلى الاتراك بالسجن المؤبد وحكم مثل هٰذَا عَلَى عبد السلام بك وهو الوحش التركي الذي كان قائد العساكر في دير القمر يوم جرت مذبحتها ومع ان القتل ثبت بلا عناء عَلَى الجميع فقد عفت مكارم السلطان التركي عن الدروز وابدلت حكم الاعدام بالسجن واغرب من هٰذَا ان هذه الاحكام ظلت حبرًا عَلَى ورق ولم ينفذ واحد منها فليذكر هٰذَا الذين يصدقون ان في دولة الاتراك خيرًا

ثم تظاهر فؤاد باشا بحب مجازاة الدروز عن بكرة ابيهم فجمع اعيان النصارى واساقفتهم وقال لهم ان اهل الارض طرًّا عرفوا بفظائع الدروز والمذابح ٱلَّتي حصلت وانهُ سيقتل كل مشترك في تلك المذابح وطلب اليهم ان يساعدوهُ عَلَى معرفة المجرمين فأجابهُ الاساقفة ان وظائفهم تمنعهم من التداخل في مسائل القتل وسفك الدماء ولكنهم

قبلوا بتعيين نوّاب من الشعب عنهم يفيدون دولتهُ الفائدة المطلوبة فرضي فؤاد باشا بذلك ولما اجتمع هؤلاء النوّاب في حضرتهِ اظهر لهم تأثرًا زائدًا واسفًا كثيرًا على الذي اصابهم ووعدهم مرارًا وتكرارًا بأخذ الثار والاقتصاص من المجرمين الفجار ثم رجاهم ان يكتبوا لهُ كشفًا باسماء الدروز الذين ظهر من فعالهم التطرُّف في القسوة الوحشيَّة وثبت انهم قتلوا الابرياء بأيديهم ثم اوضح لهم ان الامر سرّي وشدد عليهم بحفظهِ في صدورهم حتى انهُ جاء بالكتاب المقدس واضطرّ هؤلاء النوّاب ان يقسموا عليهِ بحضور اساقفتهم انهم يبقون السرّ مكتومًا ولا يعلمون احدًا بالذي دار بينهم وبينهُ ففعلوا ذلك

وظلّ هؤلاء النوّاب شهرًا كاملاً يفتكرون ويبحثون حتى وضعوا تقريرًا مسهبًا وضمنوهُ كشفًا بأسماء اربعة آلاف وستمائة درزي وثلثمائة وستين مسلمًا ومتواليًا من الذين اشتركوا في المذابح وقدموهُ إلى فؤاد باشا بناءً على طلبهِ ولم يمضِ على تقديمهِ زمان طويل حتى شاع بين الناس ان النصارى واساقفتهم قدموا طلبًا باعدام ٤٦٠٠ درزي والحوا على فؤاد باشا بقتلهم . ومن المؤكد ان النوّاب الذين قدموا الكشف لم يبوحوا بأمرهِ بسبب القسم الّتي ذكرناها وبعلة انهم كانوا يخافون من الدروز اذا هم اعلنوا ذلك ثم انهم لم يطلبوا شنقًا ولا اعدامًا في تقريرهم ولكنهم قدّموا اسماء المجرمين على حسب طلب الوزير التركي فوصول الخبر بهذا الكشف إلى الناس لم يكن الاّ من فؤاد باشا نفسهُ وقصد بذلك غايةً فاز بتحقيقها ذلك انهُ لما بلغ خبر هذا الكشف بلاد اوربا نفر الناس من النصارى واساقفتهم ولاموهم

كل اللوم عَلَى تطرفهم في حب الانتقام وانقلب الرأي عليهم في بلدان كثيرة و بنوعٍ اخص في بلاد الانكليز حتى ان بعض فئات الافرنج صارت تدافع عن الدروز وتتهم النصارى بالدناءة والرداءة ودليلها عَلَى ذلك طلب الاساقفة والرهبان ان يعدم معظم رجال الدروز كما تقدم. وهٰذَا هو الذي طلبهُ فؤَاد باشا من سياستهِ وقد اتى الاتراك مثل هٰذَا الصنيع بعد مذابح سنة ١٨٤٥ كما تقدم في هٰذَا الكتاب. ولما علم الاساقفة واعيان النصارى بما كان لهذا التقرير من التأثير في اوربا احتجوا واعترضوا واوضحوا للعالم أجمع انهم ما كتبوا الكشف الاَّ بناءً على طلب فؤَاد باشا وذكروا فيهِ اسماء الذين افرطوا في التوحش حسب تعليماتهِ وما ذكروا فيهِ غير الذين حرَّضوا على المذابح والذين رأسوا عصابات القاتلين والذين قتلوا الابرياء بيدهم ومعلوم ان هٰذَا يشمل كل وجيهٍ او مسموع الكلمة في طائفة الدروز. وعاد فؤَاد باشا فاجتمع بهؤُلاء النوَّاب ووبخهم على افشاء السرّ وهم لم يأتوا ذلك ورجاهم ان يحوروا هٰذَا الكشف ويقللوا الاسماء ففعلوا باشارتهِ وكتبوا ١٢٠٠ اسم في كشفٍ جديد وظنَّ الناس ان هؤُلاء سوف يعدمون لامحالة وقوي هٰذَا الظن فيهم لما امر فؤَاد باشا بضبط نحو الف وخمسمائة درزي من كل القرى ولكن الحكومة افرجت عن ثمانمائة شقي من هؤُلاء القتلة في الحال وكان الذين اخلت سبيلهم اشهر الذين اشتهروا في ارتكاب الفظائع فبدأ النصارى يرون ان تظاهر فؤَاد باشا بحبهم وحب الانتقام لهم من اعدائهم مثل بقيَّة ظواهر السياسة التركيَّة حتى انهُ لما دعاهم هٰذَا الوزير الى الذهاب معهُ الى المختارة لمساعدتهِ على معاقبة

القاتلين امتنعوا عن تلبية الطلب فأرسل اليهم فؤاد باشا واحداً يفهمهم ان القصد من ذهابه الى المختارة وهي عاصمة الدروز في لبنان هو ان يعقد فيها مجلساً مخصوصاً يحاكم فيه القاتلين ويأمر باعدامهم وكان يريد منهم ان يقفوا في المجلس بمثابة الشهود والمحلفين حتى يساعدوه على معرفة المجرمين فلم يذهب من النصارى غير ثمانية اطاعوا الامر بعد الالحاح الشديد ورأى الباقون ممّا مرّ ان القصد الاستهزاء بالعدل وتضليل العقول لغاية لم تخفَ عليهم . ولما وصل الباشا ومَنْ معهُ الى المختارة طلب الى الثمانية الذين ذكرناهم ان يعملوا لهُ كشفاً بثلثمائة شقي من اشقياء الدروز حتى يقتص منهم في الحال فقالوا لهُ انهم لا يعرفون بعض الانحاء التي حصلت المذابح فيها ولا يقدرون على تخصيص هذا العدد القليل من بين عشرة آلاف قاتل او اكثر الاّ اذا عادوا الى بيروت وغيرها وسألوا العارفين فيها عما يريد . قال اذاً ابعثوا وراء من تريدون من الناس الى هنا في الحال وسلوهم عما تريدون لان وقتي قصير لا يسمح لي بمثل هذا التأخير قالوا ان هذا لا يجدي نفعاً لان الناس لا يأتون كلهم سيما وان الاحزان والاهوال تمنع من ركوبهم هذا المركب الخشن الآن فأجابهم بما معناهُ انهم قوم لا يعقلون وانهم يؤخرون سير العدالة بمثل هذه الامور وحذرهم من عاقبة الاهمال في تلبية طلبه (وهو يعلم ان التلبية غير ممكنة لهم) وقال انهُ من بعد ذلك اليوم لا يقبل شكوى ولا يعاقب مجرماً وعلى ذلك عاد هؤلاء النوّاب وقد رأوا ان الحكومة التركيّة لا تنوي مد يد السوء الى الدروز

وفي الاسبوع الذي عقب هذه الحوادث أُخلي سبيل خمسمئة

درزي من الذين كانوا في سجون الحكومة فصار مجموع الذين افرج عنهم من الالف والخمسمئة حوالي الف وثلاثمائة شقي ونفي نحو مئتين إلَى طرابلس الغرب حيث صدرت التعليمات بالاحسان اليهم والتلطف معهم وعاد هؤلاء المتغيبين الى قراهم على نفقة الحكومة حالما غفلت عين اور با عن مراقبة الاتراك وحكومتهم

ولطالما عثر بعض النصارى بالذين قتلوا اقاربهم من الدروز في خلال تلك الاعمال والمخابرات واخطروا الحكومة بوجودهِ فلم تقبض عليهِ حتى ان بعض النصارى كانوا يقبضون عَلَى امثال هؤلاء ويأتون بهم إلَى دار الحكومة فتصرف المشكل بالافراج عن الدرزي وعَلَى ذلك انقضى الامر ولم يقتل من الذين فتكوا بالالوف غير سبعة او ثمانية غير معدودين واما بقيَّة القاتلين فدافعت عنهم الحكومة التركيَّة ما استطاعت وخلصتهم من العقاب بالاساليب الَّتي ذكرناها. وكانت المحكمة الَّتي شكلت في المختارة لمحاكمة القاتلين اكبر مثال عَلَى الظلم واوضح دليل عَلَى ان الاتراك كانوا يهزأون بالعدالة في كل اجراءاتها فقد تقدمت من بين الناس امرأة واتهمت درزيًّا انهُ قتل زوجها واتت بالادلة والشهود عَلَى ذلك وكان القاتل يتحدث بين اخوانهِ في قتل ذلك الرجل ويفرح بالذي اتاهُ فلما وقفت المرأة امام المحكمة بدأ اعضاؤها العادلون يسألونها السؤالات الباردة من مثل قولهم كيف قتل زوجكِ. قالت ضربهُ فلان برصاصة من بندقيتهِ قالوا وهل كانت البندقيَّة ذات طلق واحد او متعددة الطلقات. وفي اي ناحية من جسمهِ اصابتهُ الرصاصة أفي صدرهِ أم في رجلهِ. وهل ظلت الرصاصة

في جسمهِ أو خرجت منهُ . وهل وقع ساعة موتهِ عَلَى ظهرهِ او عَلَى صدرهِ . فضاقت صدور النصارى من هذه الامور ولم يبقَ عندهم ريبٌ في ان الحكومة التركيَّة تنوي خلاص الذين قتلوا افاربهم وعدلوا عن الالتجاء إِلَى رحمتها وقطعوا كل امل في عدالتها

الاحتلال الفرنساوي

ووصلت الجنود الافرنسيَّة الباسلة مدينة بيروت في اليوم السادس عشر من شهر اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان افراد هٰذَا الجيش الصغير — وعددهُ ستة آلاف رجلٍ — ينشدون الاناشيد الحماسيَّة بلغتهم الافرنسيَّة ويتوعدون الدروز بالجزاء العادل ويسرُّون لانهم جاؤُوا للاقتصاص من الذين ذبحوا الابرياء وفتكوا بالمساكين فكان لوصولهم رنة عظيمة وتأثيرٌ كبير وفرحت القلوب فرحًا لا يوصف في يوم قدومهم المبارك وطارت الاخبار الى سائر الانحاء ان هٰذَا الجيش المحلل قد جاء معهُ بالآلات الجازرة (الجلوتين) لقطع رقاب القاتلين وعسكروا عقيب وصولهم في اطراف مدينة بيروت حيث ظلوا حوالي شهرٍ في « الحرش » المعروف

ثم اتفق الجنرال بوفور مع فؤَاد باشا عَلَى ان يتقدم الجيش الافرنسي والجيش التركي لمقاصة الدروز فذهب فؤَاد باشا ببعض الجنود التركيَّة إِلَى آخر لبنان من جهة الشرق حتى يقطع عَلَى الدروز طرق الفرار من وجه العدالة إِلَى حوران وتقدم الجيش الافرنسي من جهة البحر فصار الدروز بين جيشين وظنَّ البعض ان خلاصهم

مستحيل . وكان النصارى يتبعون العساكر الافرنسيّة افواجاً ويدعون لها بالنصر حتى ان بعضهم حملتهم الغيرة عَلَى قتل بعض الدروز في مدة وجود هٰذَا الجيش عَلَى مقربةٍ منهم وكان الجنرال بوفور يقاص كل نصراني وكل عسكري من رجالهِ يمدُّ إِلَى الدروز يد الاذى . والتقى جيش الدولة الافرنسيّة بجيش الاتراك في بلدة جب جنين في البقاع بعد ايام من خروج الفرنسويين من بيروت وكان الجنرال بوفور يظن ان الدروز صاروا في قبضة يدهِ وان القاتلين منهم سوف يقتلون في الحال فجاء اليهِ فؤاد باشا واعلمهُ ان الجانين من الدروز تمكنوا من الفرار إِلَى حوران مع كل ما اظهر وجيشهُ من الاهتمام لحصرهم في مواضعهم واظهر الاسف من ذلك فظن الجنرال الى ان في الامر حيلة واظهر غيظهُ لفؤاد باشا بالكلام الثقيل على هذه الخيانة ورأى ان القصد من الحملة لم يتمّ وان دسائس الاتراك جعلت قدومهُ بلا فائدة فاظهر حدة كبيرة وكان على وشك ان يأمر رجالهُ بالغارة على قرى الدروز ولكنهُ امتنع عن ذلك خوف ان يؤخذ البريء بجريرة الاثيم ولما كانت الاوامر التي أُعطيت اليهِ من دولتهِ تقضي عليهِ بالانقياد الى فؤاد باشا اضطرَّ الى سماع قولهِ وكان فؤاد يريد منهُ الرجوع الى بيروت ففعل ذلك بعد ان عسكر رجالهُ زماناً في بعض القرى اللبنانيّة لا عمل لهم غير مساعدة النصارى عَلَى بناء البيوت التي حرقت مدة الحرب والتطلع الى غير هذا وقد شهد الناس أجمع يومئذٍ بالتأدب لهذه الجنود الباسلة التي كانت تود لو تسمح لها الظروف باظهار ما عندها من البسالة في القتال ولكن دسائس الاتراك وحيلهم غلبت

تدابير الجنرال بوفور فعاد بجيشهِ الى بيروت كانما هو عائد من القتال مكسورًا ولوائح الاسف من ضياع المقصود بادية على الوجوه

وكانت دولة الاتراك ودولة الانكليز تود أن لا يطول هذا الاحتلال الافرنسي لبلاد الشام فاتتا كل الطرق اللازمة لتعجيل يوم الجلاء وقيل ان الجنرال بوفور رشي بمال طائل حتى يساعد الاتراك على اخراج عساكرهِ من بلادهم وكان مدة وجودهِ في بيروت بعد عودهِ من لبنان قاعدًا ورجالهُ مدة سبعة اشهر بلا عمل ولا امر يهم تنفيذهُ ولطالما اشتكى اليهِ النصارى مدة وجودهِ من ظلم الاتراك في الامور الكثيرة فلم يقدر على التداخل حتى ان بعض رعاع المسلمين كانوا يعتدون على جنودهِ الباسلة ويضربون كل من يقع في ايديهم ضربًا مبرحًا فلم يقدر على ردعهم واخيرًا في ٥ يونيو من سنة ١٨٦١ اي بعد المذابح بعام واحد وكان ذلك اليوم اشدّ سوادًا من الليل في عيون النصارى والعساكر الافرنسيّة الباسلة اذ صدر اليها الامر بالجلاء عن بلاد الشام فعملت بالامر والرجال يتحسرون على رجوعهم بعد القعود الطويل على غير فائدة وعلى انهم لم ينفذوا احكام العدالة في مجرم واحدٍ من مجرمي الدروز وفرح المسلمون والدروز بهذا الجلاء فرحًا لا يوصف . وكثرت من بعد ذلك الاشاعة بان الجنرال بوفور اعطي ٧٥ الف ليرا عثمانيّة حتى يسهل امر هذا الجلاء وهكذا انتهى احتلال الجيش الافرنسي لبلاد الشام ولم يفد في شيء وفلت الدروز من الجزاء العادل بمساعدة الاتراك الذين حرضوهم على تلك الفعال

فصل

مؤتمر بيروت من ٥ اكتوبر سنة ١٨٦٠

وكانت الدولة الافرنسيَّة ترى من اول الامر ان يعقد في سوريَّة مؤتمر دولي للنظر في الاحوال التي ذكرناها وتحقيقها وتقديم الآراء اللازمة عما يجب فعله من بعدها لاجتناب حدوثها في المستقبل ووافقتها الدولة الانكليزيَّة على هٰذا الرأي ثم عرض الامر على بقيَّة الدول وعلى دولة الاتراك فقبلنَ بهِ وتعين اعضاؤهُ كما يأتي :

وكيل تركيا « ورئيس المؤتمر »	فؤاد باشا
« انكلترا	اللورد دوفرن
« فرنسا	الموسيو بكلار
« روسيا	« فيكوف
« النمسا	« وكبكر
« بروسيا	« رهفوس

وكان امهر هؤلاء الوكلاء الكرام فؤاد باشا التركي لانهُ كان يلعب ببقيَّة الرجال كما يلعب المرّ بالقار وسوف تعلم ذلك ممَّا يجيء . واشتهر اللورد دوفرن منهم بالذكاء واستقامة الرأي وهو الى هٰذا اليوم من اعظم اكابر الانكليز ينوب عن بلادهِ في عاصمة الجمهوريَّة الافرنسيَّة واجتمع هٰذا المؤتمر في بيروت لاول وهلة في ٥ اكتوبر سنة ١٨٦٠

فقرّر ان ينظر في اسباب المذابح الاخيرة والمسؤول عنها وان يرتاي مجازاة الذين اشتركوا فيها والتعويض عما خسرهُ النصارى بسببها وتعيين مقدار التعويض وتقرير نظام لجبل لبنان يحكم بموجبهِ في مستقبل الايام حتى لا تعود المذابح التي تقدم ذكرها . وجلس المؤتمر ٢٥ جلسة في مدة خمسة اشهر وفضَّ في ٥ مارس سنة ١٨٦١

واهتمَّ هٰذا المؤتمر في اول الامر بالتعويض الذي كان النصارى في حاجةٍ كبرى اليهِ فقد يعسر على القلم بيان حال اولئك المساكين وما صاروا اليهِ من الذل الهائل والفقر الكثير وكانت الارامل يتجمعنَ من سائر القرى والاطفال الذين بين ايديهنَّ يصرخون من ألم الجوع والعري والرجال يتحسرون ويتنهدون على الذي لحق بهم من الذل والذي اصابهم من فقد الاحبة والاموال وظهرت على وجوه الكثيرين منهم هيئة الموت والالم الذي لا يطاق . كل هٰذا والمسلمون يزيدون عن الدروز غلظةً في الشماتة والتعيير والفرح بمصائب هؤلاء المساكين في حين ان الاموال الوافرة كانت ترد على المصابين من جماعة المحسنين في اوروبا واميركا وتشكلت اللجان الكثيرة للصدقات فاعطي المعوزون الغذاء والكساء والغطاء وبعض المال واشترك في هٰذا الاحسان اكثر الامم الاوربيَّة وكان في مقدمتها الامة الانكليزيَّة والامة الافرنسيَّة والامة الاميركيَّة . وجاء بعض الاحسان من السلطان ايضاً فوزع مثل غيرهِ على المعوزين ودفع اللورد دوفرن وكيل انكلترا يومئذٍ في مؤتمر بيروت خمسة آلاف جنيه من مالهِ الخاص لمساعدة هؤلاء الحزانى واتى المؤتمر كل ما يقدر عليهِ الاشتراك مع الذين حزنوا لمصاب

هؤلاء المنكودي الحظ فقدّر ان مجموع خسائر النصارى لا يقل عن ثلاثة ملايين جنيه وانتقل الى مدينة دمشق بهيئته الكاملة لينظر في امر تلك المدينة وبعد البحث والتروّي قرر اعضاؤهُ ان خسائر دمشق لا تقل عن مليون ونصف من الليرات العثمانيّة ولكن فؤاد باشا اتى كل دهائهِ وذكائهِ حتى انزل هٰذَا القدر إِلَى اقلّ من النصف فرضي المؤتمر بتقدير الخسارة بسبعمائة الف ليرا وقرّر أن يجمع هٰذَا المال من مسلمي تلك الناحية و يعطى إِلَى المسيحيين كلٌّ على قدر خسارتهِ. وارتأى فؤاد باشا ان يجمع قسم من هٰذَا المال من طائفة الدروز فلم يوافقهُ المؤتمر على رأيهِ

ومن اغرب امور هٰذَا المؤتمر ان فؤاد باشا اعلن بقيّة الاعضاء في الجلسة الخامسة عشرة ان الباب العالي قد اقرّ على ان تنظر مسائل التعويض بومتها في الاستانة و يعفى المؤتمر من النظر فيها فذهل بعض الوكلاء لهذه الحكاية وصمت الآخرون ولكن الغريب في الامر انهم لم يعترضوا على هذا القرار وسلموا بهِ في الحال مع ان حقوقهم كانت تخوّل لهم المثابرة على النظر بانفسهم في امور التعويض. ونتج عن انتقال هذا الامر الخطير إِلَى يد الاتراك ما يعرفهُ كل عارفٍ في الارض فان الباب العالي اعلن بعد الامهال الطويل انهُ لا يقدر على دفع اكثر من ٣٥٠ الف ليرا لاهل دمشق وان هذا المال يعطى اليهم اقساطًا يقبضونها كل ستة اشهر على مدة ثلاث سنين ومعلوم ان التعويض مع مثل هٰذَا التأخير وفي يد اناس ياكلونهُ ولا يعطونهُ إِلَى اصحابهِ مثل ماموري الاتراك لا يعد تعويضًا ولكنهُ يعد ظلمًا تركيًا

وقد حصل من بعد هذا القرار ان الدولة التركيَّة اعطت بعض الاساقفة والوجهاء مالاً قليلاً فأعطوها الشهادات بوصول حقهم اليهم وبانهُ لم يبقَ عليها شيءٌ من اوجه العدالة وبان النصارى يدعون لها بدوام النصر عَلَى هذا الاحسان الكثير والعدل الوافر وانقضى الامر بمثل هذه الاكاذيب فلم يقبض بعض المصابين شيئاً وقبض بعضهم معشار ما لهُ وقبض المأمورون بعض ما للذين لم يجسروا عَلَى المطالبة ولم يبلغ مجموع الذي دُفع عشر الذي خسرهُ الاهالي من المال في سنة الاهوال. واما الذي اصاب الارامل والايتام من اهل حاصبيَّا وراشيَّا ودير القمر فحدث عنهُ ولا حرج فقد ذبلت نفوس هؤلاء المساكين من الهم ولم تعطهم الحكومة التركيَّة شيئاً من التعويض الاَّ اليسير ولولا ان يتداركهم اولو الاحسان من الافرنج لحقوا بالذين قتلوا في تلك المجازر الوحشيَّة

وكان من اهم اعمال مؤتمر بيروت النظر في جنايات الدروز والمسلمين من مراقبة محاكمتهم واعدامهم فاجتهد فؤاد باشا في اول الامر ان ينزع هذا الحق من يد المؤتمر كما نزع حق النظر في امر التعويضات فهاج لذلك اللورد دوفرن وقال انهُ اذا حاولت الحكومة التركيَّة منع المؤتمر واعضائهِ من النظر في سير المحاكمات وتوقيع العقوبات ذهب بنفسهِ إِلَى المحكمة واجاز للحرَّاس منعهُ من الدخول بالقوة حتى يثبت ذلك عَلَى عمال الدولة التركيَّة ويعرف كيف يجازيهم بعد ذلك ووافقهُ بقيَّة الاعضاء فخاف فؤاد باشا وعدل عن رأيهِ ولكنهُ صمم النيَّة عَلَى عرقلة مساعي المندوبين ونجح في ذلك فطلب اليهم ان يبدوا

رأيهم في كيفيّة المجازاة وصار كل واحد منهم يبدي رأياً فكان وكيل دولة النمسا يرى ان الاعدام لا يجوز مطلقاً بدعوى ان الذي يقتل خصمهُ في الحرب لا يستحق الاعدام . وكان قنصل روسيا يريد امراً غير هذا وقنصل فرنسا يطلب اعدام وجهاء الدروز واكابرهم وفي جملتهم سعيد بك جنبلاط فعارضهُ وكيل انكلترا في امر هذا العميد ولم يوافق عَلَى قتلهِ ولكنهُ رضي باعدام الآخرين وهكذا وقع المؤتمر في شرك الاتراك وكثر الاختلاف بين اعضائهِ

ومضت الايام والاشهر والمؤتمر يبحث في المسائل وفؤاد باشا يؤخر نتيجة اعمالهِ بكل واسطة ممكنة فيوماً يلقي عليهِ المسائل المعضلة ويوماً يتقرّب من وكيل عَلَى وكيل آخر ويوماً يطلب منهُ الامهال في بعض الامور ريثما يتمّ التحقيق ويوماً يسافر إِلَى دمشق او سواها بدعوى ان الاحوال تدعو إِلَى ذلك فيؤخر المؤتمر عن اتمام اشغالهِ حتى ضاقت صدور الناس من هذا التأخير وحذر المؤتمر فؤاد باشا من عاقبتهِ بجمع اساقفة النصارى واعيانهم عَلَى ما تقدم وامرهم بتحرير الكشف الذي ذكرناهُ وظلّ اشهراً يحاول الوكلاء بهذا الكشف ويمدهم بتحضيرهِ وتنقيحهِ ومجازاة الذين يذكرون فيهِ حتى اذا شاع بين الناس ما مرّ عن رغبة الاساقفة ووجهاء النصارى في اعدام ٤٦٠٠ درزي انقلبت الافكار عَلَى النصارى وبدأ البعض من اعضاء المؤتمر يدافعون عن الدروز ويرتأون تشكيل محكمة مخصوصة تدور في المدن والجبال لمحاكمة النصارى والدروز معاً من الذين اشتركوا في الحرب الاخيرة

وكان فؤاد باشا في خلال هذه المدة يحاكم بعض دروز بيروت والمختارة على ما تقدم من اساليب الدهاء والتمويه وكلما سأله وكلاء الدول ان يعجل في التحقيق ويسرع في معاقبة الجانين يقدم لهم رأياً جديداً وعذراً يوجب التأخير حتى فرغ الصبر عن آخره ولم يعد في امكان الوزير التركي ان يزيد في التأخير فأمر باعدام ٣٥ رجلاً من أشهر اشقياء الدروز وهكذا انتهى الامر ولم يقتل من هؤلاء القتلة الغادرين غير هذا العدد الذي لا يذكر

ثم عاد المؤتمر إلى التحقيق والنظر في ما يجب اتخاذه من الاعمال لمنع حدوث مثل هذه المذابح في لبنان وكثر اختلافهم في هذا الامر ايضاً ولكنهم قرروا مبدئياً ان يكون حاكم لبنان المطلق مسيحياً من غير اهله ومن رعايا الدولة التركية ويكون الثاني في الجبل بعده من الدروز وان يستقل لبنان في شؤونه الداخلية تحت سيادة الباب العالي وانتهت جلسات هذا المؤتمر في ٣ مارس سنة ١٨٦١ فرفع تقريره إلى الاستانة للباب العالي وسفراء الدول وهناك تخابرت الدول في الامر فقررت بعد الامعان قبول المبدإ الذي اوضحناه

وسنت نظاماً لجبل لبنان رأينا ان ننقل صورته

هنا وبمثل هذا انتهت حوادث

سنة ١٨٦٠

السوداء

ترجمة نظام جبل لبنان

لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنين للنظام الذي وُضع وللقرار الذي تقدم صدورهُ بخصوص ادارة جبل لبنان تحصيلاً لاسباب رفاهة وأمن الرعيَّة التابعين دولتي العليَّة القاطنين والمستوطنين الجبل المذكور وكان من المقرَّر انهُ عند انقضاء المدة المعينة يعاد التذاكر في مقتضى الحال وقد انقضت الآن اجري التعديل والتنقيح في بعض المواد الواردة في لائحة هٰذا النظام وعند عرضها عَلَى جناب سلطنتي الاشرف والاستئذان فيها تعلق شرف صدور ارادتي السنيَّة الشاهانيَّة باجراء مقتضاها عَلَى هٰذا الوجه وبموجبها لزم اعلان النظام المذكور عَلَى المنوال الآتي بيانهُ

﴿ المادة الاولى ﴾ يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي تنصبهُ الدولة العليَّة ويكون مرجعهُ الباب العالي رأساً وهو محتمل العزل بمعنى انهُ لا يستمر في منصبهِ ما دام حيًّا . ويكون عَلَى عهدتهِ القيام بجميع خطط الادارة الاجرائيَّة متوفراً عَلَى حفظ الراحة والنظام في انحاء الجبل كلها وان يحصل منها التكاليف . وبحسب الرخصة الَّتي من لدن الحضرة الشاهانيَّة ينصب تحت عهدتهِ مأموري الادارة المحليَّة ويقلد الحكام القضاء ويعقد المجلس الكبير ويتولى رئاستهُ . وينفذ الاعلامات القانونيَّة الصادرة من المحاكم الخارجة عن القيود الَّتي ستذكر في المادة الثامنة

✻ المادة الثانية ✻ ينبغي ان يكون للجبل كلهُ مجلس ادارة كبير مؤلفًا من اثني عشر عضوًا اثنين مارونيين ينوبان عن مديريَّة[1] كسروان . وثلثة من مديريَّة جزين احدهم ماروني والثاني درزي والثالث مسلم واربعة من مديريَّة المتن احدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة . وعضو واحد درزي من مديريَّة الشوف وآخر من الروم ينوب عن مديريَّة الكورة . وآخر من الروم الكاثوليك عن مديريَّة زحلة . ومجلس الادارة هذا يكون مأمورًا بتوزيع التكاليف والبحث في ادارة واردات ومصاريف الجبل و ببيان آرائهِ من وجه المشورة فيما يعرضهُ عليهِ المتصرف من المسائل

✻ المادة الثالثة ✻ ينبغي ان ينقسم جبل لبنان إلى سبعة قضاوات الاوَّل يشتمل عَلَى الكورة مع الجهة التحتيَّة والاراضي المجاورة الآهلة باقوام عَلَى مذهب الروم الاَّ ان قصبة القلمون الَّتي عَلَى ساحل البحر ومعظم سكانها من اهل الاسلام هي مستثناة من ذلك . والثاني يشتمل من شمالي لبنان عَلَى جبة بشري والزاوية و بلاد البترون . والثالث يشتمل من الشمال المذكور بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح و كسروان الاصلي حتى نهر الكلب . والرابع يشتمل عَلَى زحلة وضواحيها . والخامس يشتمل المتن مع ساحل النصارى واراضي القاطع وصليما . والسادس يبتدئ من جنوبي طريق الشام حتى جزين . والسابع يشتمل جزين

(١) في بداية تأسيس المتصرفية اللبنانية كانت المديرية بمعنى القائمقامية وكان قضاءا كسروان والبترون مديرية واحدة ولهذا ورد في هذا النظام لفظة مديرية عوض لفظة قائمقامية المستعملة الآن

واقليم التفاح . وفي كلٍّ من هذه القضاوات السبعة المارّ ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور ادارة منتخباً من ابناء المذهب الغالبين هناك عدّاً في النفوس أو اهميّة في الاملاك والاراضي الجارية بتصرفهم

﴿ المادة الرابعة ﴾ يجب ان تنقسم القضاوات إلى نواحٍ على نمطٍ قريب المشاكلة لما ذكر من اقسام القضاوات فيلي كل ناحية مامور ينصبهُ المتصرف بناءً على انهاء القضا . وان يكون في كل قرية شيخ ينصبهُ المتصرف بانتخاب اهلها

﴿ المادة الخامسة ﴾ قد تقرّر امر المساواة بين الجميع في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائدة لاعيان البلاد خصوصاً ذوي المقاطعات

﴿ المادة السادسة ﴾ يكون في الجبل ثلاث محاكم ذات درجة اولى يقوم كلٌّ منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ومعهما ستة وكلاء دعاوي رسميين ينتخبهم الطوائف . ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محاكمة كبير يتألف بستة حكام ينتخبهم المتصرف ويعينهم من الطوائف الست وهي المسلمون السنيون والمتاولة والموارنة والدروز والروم والروم الكاثوليك ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوي الرسميين لكل طائفة وكيل معين . واذا وقع دعوى لاحد المتمذهبين بمذهب البروتستنت أو اليهود اضيف إلى المجلس حاكم ووكيل دعاوي رسمي من اهل كلا المذهبين علاوةً على الاثني عشر عضواً المارّ ذكرهم امّا رئاسة هذه المحكمة فيتولاها مامور مخصوص ينصبهُ المتصرف . وان اقتضت حاجات البلاد مزيداً فللمتصرفين ان

يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى . واجراء للحكومة مجراها المتسق ينبغي لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الحريّة بان تكون فيها هذه المحاكم

﴿ المادة السابعة ﴾ ان لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوى الّتي لا يتجاوز قدرها مئتي قرش حكمًا غير مستأنف واما الدعاوي المتجاوز قدرها مئتي قرش فترى في مجالس المحاكمة ذات الدرجة الاولى عَلَى انهُ لو عرض امورٌ مختلطة وهي الدعاوى الواقعة بين اثنين مختلفي المذهب وابى ايهما كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونهِ عَلَى مذهب المدعى عليهِ فتحال وان قلّ قدرها إِلَى محاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوى ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بغالبيّة آراء الاعضاء الّا ان للمدعي والمدعى عليهِ المتحدي المذهب ان يردوا الحاكم لاختلاف مذهبهِ غير ان الحكام المردودين من هٰذَا الوجه لابدَّ من حضورهم للمحاكمة

﴿ المادة الثامنة ﴾ تقتضي المحاكمة في الدعاوي الجزائيّة ان تكون عَلَى ثلثة وجوه وهي ان يرى دعوى القباحة شيوخ القرى المتقلدون خطة حاكم وان الجنحة والجرائم تراها المحاكم ذات الدرجة الاولى . وان الجنايات تجري محاكمتها في مجلس المحاكمة الكبير . واعلامات الحكم الواجب صدورها من هٰذَا المجلس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ ما لم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها في سائر الممالك المحروسة الشاهانيّة

﴿ المادة التاسعة ﴾ ينبغي ان يرى في مجلس تجارة بيروت

كل الدعاوي التجاريَّة حتى ان الدعاوى العادية الواقعة بين واحدٍ من ذوي التابعيَّة الاجنبيَّة او احد الداخلين في حماية اجنبيَّة وبين آخر من اهل الجبل ترى في المجلس المذكور. على ان المنازعات البادية بين اللبنانيين والاجنبيين متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن تراضٍ من المتنازعين فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتحابة الفخيمة ان ينفذوا اعلام المحكمين. وان تعذر تراضي الخصمين على التحكيم في الدعوى واحيلت إلى محكمة بيروت فتجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواهُ بحسب التعريفة الَّتي وضعها متصرف جبل لبنان وقناصل الدول جملةً واتفاقًا وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي. ومن المقرَّر انهُ يجب في الصك الحاوي تراضي المتنازعين على اتخاذ محكمين ان ينظماهُ ويمضياهُ وفقًا لاصولهِ وان يسجلاهُ في بيروت وفي مجلس المحاكمة الكبير بلبنان

✻ المادة العاشرة ✻ ان الحكام ينصبهم المتصرفون بخلاف اعضاء مجلس الادارة فانهم ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى كما ان انتخاب الشيخ يكون بمعرفة اهل القرية. ثم ان اعضاء مجلس الادارة يجدَّد انتخاب ثلثهم كل سنتين ويجوز تكرير انتخاب من انقضت عضويتهم

✻ المادة الحادية عشرة ✻ يجب ان يكون الحكام باجمعهم موظفين وان اقدم احدهم على ارتكاب «الرشوة» او تبين بالتحقيق انهُ آتٍ ما لا يليق بصفة مأموريتهِ فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضاً للتأديب على قدر قباحتهِ

المادة الثانية عشرة يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ان تكون المرافعة علنية وان يعهد بضبط الدعوى إلى كاتب مخصوص وما عدا ذلك فحيث ان هذا الكاتب يكون مأمورًا باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغٍ وانتقال «بيع» الاموال الثابتة «العقار» فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها ما لم تقيد بحسب اصولها في السجل المذكور

المادة الثالثة عشرة ان المتهمين من اهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير الوية فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيهِ الجرم . وكذا مرتكبو الجرم من اهالي سائر الالوية داخل نطاق جبل لبنان ينبغي ان تجري محاكمتهم والحكم عليهم بدعاوى جرائمهم في جبل لبنان . وبناءً على ذلك فان المجترمين في جبل لبنان سواءٌ كانوا من اهاليهِ الوطنيين او من نزلائهِ المعدودين من اهل ديار اخرى اذا فرُّوا إلى لواءٍ آخر فكما ان على ضابطهِ ان يمسكهم بمقتضى الاشعار الوارد من قبل ادارة جبل لبنان ويسلمهم اليها كذلك يلزم ادارة الجبل ان تلقي القبض على الفارين اليهِ من المجرمين في احد الالوية لبنانيين كانوا او غير لبنانيين وتدفعهم إلى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطهِ ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين إلى المحاكم المنوطة بها دعاويهم او الذين يجيزون تأخيرات لايمكن اثبات انبنائها على اسباب شرعية فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون ويخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها

بين ادارة جبل لبنان والالوية المجاورة لها تكون كالواصلات الجارية والمتخذة دستوراً للعمل بين باقي السناجق في ممالك الدولة العليَّة

المادة الرابعة عشرة ان سبيل المتصرف إلى اقرار حفظ الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العاديَّة انما يكون بمعرفة فرقة ضبطيَّة مجموعة من الاهلين بحسبان سبعة انفارٍ تخميناً على كل الف من النفوس. ويجب نسخ سكك الحوالية وابطال نزول الضبطيَّة على البيوت والاعتياض عن ذلك باسباب اكراهيَّة كاستياق المحكوم عليه إلى السجن. فبناءً على ذلك يمنع مامورو الضبطيَّة بقيد التأديبات الشديدة ان يصادروا اهل البلاد بشيءٍ من الاجرة نقداً كان أو عيناً. ويجعل للضبطيَّة ملبس رسمي أو أزياء مميزة لهم في خدمتهم. وان تبقى طرقات بيروت والشام وصيداء وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانيَّة إلى ان يصدق المتصرف على ان جند الضبطيَّة صاروا اكفاءً لاتمام جميع الوظائف المحمولة عليهم في الازمنة العادية. وهذا العسكر يكون لدى المتصرف وبادارته وللمتصرف ان يطلب من الحكومة العسكريَّة بسوريَّة الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال غير العادية ان دعت الضرورة بعد أن يستشير مجلس الادارة الكبير. ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها وهو « اي الضابط المومأ اليه » وان كان مختاراً ومستقلاً بامور العسكر المحضة كاجراء الحركات والنظامات الجنديَّة الاَّ أن عليه مدَّة وجوده في الجبل أن يلزم معيَّة المتصرف ويجري العمل تحت عهدته وفي حال اعلان المتصرف لرئيس العسكر وافادته رسميًّا ان قد زال

السبب الذي من اجله ورد العسكر إلى الجبل يجب عليهِ اخراجهُ منهُ

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ ان الدولة العليَّة تحافظ على حقها المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلثة آلاف وخمسمئة كيس وذلك على يد المتصرف على انهُ يجوز ابلاغ هٰذا القدر إلى سبعة آلاف كيس عند الامكان بحيث ان المال المتحصل يخصص بادئ بدء لادارة الجبل ونفقات منافعهِ العموميَّة فان فضل منهُ شيء رُدَّ الفاضل إلى الخزينة وان اقتضت شدة الضرورة إلى تحسين مجرى الادارة مزيدًا على التكاليف المعينة فيرجع في تسوية المزيد إلى مصاريف الخزينة الجليلة امَّا واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونيَّة فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي اذخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة على ان السلطنة السنيَّة لا تقوم باداء مصاريف المنشآت العموميَّة وسائر النفقات غير العادية ما لم يتقدم قبولها لها وتصديقها عليها

﴿ المادة السادسة عشرة ﴾ يجب تعجيل الشروع في احصاء نفوس اهل الجبل محلاًّ محلاًّ وملةً ملةً ومسح جميع الاراضي المزدرعة ونظم خريطة مساحتها

﴿ المادة السابعة عشرة ﴾ كل الدعاوي الكائنة بين افراد رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون بهِ أو المتهم تابعين للحكومة الرهبانيَّة الاَّ ان تطلب الاسقفيَّات احالة ذلك إلى مجلس الدعاوي العادية

﴿ المادة الثامنة عشرة ﴾ يمتنع في عموم اماكن الرهبان مطلقًا

اجارة للاجئين اليها ممن تطلبهم وتتعقبهم الحكومة رهبانًا كانوا أو من عوام الناس « اه »

ان الثاني عشرة مادة المسرودة آنفًا هي النظامات الاساسيَّة لجبل لبنان يجب اتخاذها دستورًا للعمل إلَى ما شاء الله تعالى. ومن مقتضى ارادتي القاطعة السلطانيَّة ان يتوفر الجميع على كمال الاعتناء والدقة في اجرائها وتنفيذها حرفًا فحرفًا والحذر كل الحذر من مخالفتها . وائذانًا بذلك صدر فرماني هٰذا العالي الشأن . وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة احدى وثمانين ومائتين والف « اه »

وقد عاد هذا النظام بالفائدة المطلوبة عَلَى جبل لبنان فانتظمت احوالهُ ورقت شؤونهُ وسارت ادارتهُ سير الاصلاح والتقدم في حين ان الولايات الاخرى من بلاد الشام ٱلَّتي لم يشملها هذا النظام ظلت عَلَى ما هي عليهِ الآن من الاختلال في الآراء وسوء الحال . ولكن هذا لم يفدِ الذين أُصيبوا بفقد الاهل وضياع المال ولم تزل آثار تلك الفظائع والاهوال باقية إلَى الآن في المدن والقرى ٱلَّتي دمرها الاتراك والدروز في السنة السوداء من مثل دير القمر وراشيَّا وحاصبيَّا ودمشق وغيرها. وقد تشتت اهالي المدن ٱلَّتي ذكرناها في جهات شتى واستوطن بعضهم المدن البحريَّة من بلاد الشام ورحل بعضهم إلَى القطر المصري وبعضهم إلَى أُوروبا واكثرهم الآن من نخبة المعروفين بين وجهاء الشام وادبائها

جعل الله الذي ذكرناهُ خاتمة مصائب الشام واحزانها وألم حكومتها الاقدام عَلَى تعميم العدل والاصلاح فيها انهُ السميع المجيب

فصل

في بعض ايضاحات عن جبل لبنان

جبل لبنان سلسلة جبال وهضاب تمتد من منتهى السلسلة الغربيَّة شمالاً حيث مديريَّة الهرمل الى اقصاها جنوباً حيث جبل الريحان وتتصل حدودهُ بشطوط البحر المتوسط غرباً على محاذاتهِ طولاً ما عدا بعض المدن الكبيرة كطرابلس وبيروت وصيدا فانها منفصلة عنهُ سياسةً . ويحدهُ من الجهة الشرقيَّة سهل البقاع المشهور

ومجموع النفوس المكلفة فيهِ (اي التي تدفع الاموال الاميريَّة) ٩٩٨٣٤ نفساً واذا أضفنا إلَى كل فردٍ اربعة كان عدد السكان التابعين لمتصرفيَّة لبنان نحو خمسمئة الف نسمة وربما زادوا عَلَى هٰذَا العدد

وقد تغير حال هٰذَا الجبل ونظامهُ بعد حادثة سنة ١٨٦٠ ونال امتيازاً لم ينلهُ مكان آخر سواهُ وذلك واضح من الفرمان المدرج آنفاً الصادر في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٢٨١ للهجرة

واما المتصرفون الذين تولوا الحكم فيهِ منذ سنة ١٨٦١ إلَى الآن فخمسة اولهم داود باشا ابتدأت مأموريتهُ في ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ وبقي متصرفاً ٦ سنين و ١١ شهراً وتلاهُ فرانقو باشا في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٨ فتوفي بعد اربع سنين وسبعة اشهر وعين بعدهُ دولتلو رستم باشا (سفير الدولة العثمانيَّة الآن في لندن)

في ٩ مارس (اذار) سنة ١٨٧٣ وبقي متصرفاً عشر سنين وشهرين. وخلفهُ واصف باشا في سنة ١٨٨٣ وتوفي في سنة ١٨٩٢ فخلفهُ دولتلو نعوم باشا المتصرف الحالي

ويشتمل هٰذا الجبل على سبعة اقضية في كلٍّ منها عدة نواحٍ. وفي كل قضاءٍ قائم مقام وفي كل ناحية مدير والمديرون يخابرون القائمقاميَّة والقائمقاميَّة تخابر المتصرفيَّة والمتصرفية تخابر الباب العالي. فقضاء الشوف يتضمن اثنتي عشرة ناحية منها ناحية الشوفين وهي تحتوي على اثنتين وعشرين قرية. وناحية الغرب الاقصى وتحتوي على تسع قرى. وناحية اقليم الخروب وتحتوي على ٥٦ قرية. وناحية العرقوب الاعلى وتحتوي على ٨ قرى. وناحية العرقوب الجنوبي وفيها ١٠ قرى والعرقوب الشمالي وفيها ١٤ قرية. وناحية الغرب الشمالي وفيها ١٧ قرية. وناحية الغرب الاعلى وفيها ٩ قرى والجرد الجنوبي وفيها ٢١ قرية والجرد الشمالي وفيها ١١ قرية والمناصف وفيها ١٨ قرية والشحَّار وفيها ١٤ قرية. والجملة ٢٠٨ قرى وعدد النفوس الَّتي تدفع الاموال الاميريَّة في هٰذا القضاء ٢٣٩٨٣ نفساً وفيهِ ٧٧ مكتباً للتعليم و ١٧ جامعاً و ٢٠ كنيسة و ١١٨ خلوة للدروز و ٧٠٩ دكاكين و ١٥٧٣٩ بيتاً. وما برح هٰذا القضاء اهم الاقضية في متصرفية جبل لبنان نظراً إلى كونهِ محيطاً بمركز متصرفية الجبل وفيهِ السكان المختلفة الاديان والمشارب

وقضاء المتن فيهِ ٥٤ قرية تتعلق رأساً بمركز القضاء وناحية المتن الاعلى وفيها ٤٨ قرية وناحية بسكنتا ١٠ قرى وناحية القاطع ٣٨

قرية وناحية الشوير ٥ قرى. والساحل ٢٤ قرية والجملة ١٧٩ قرية. وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٢٣١٩٥ وفيهِ مئة مكتب ومكتبان و١٧٤ كنيسة و ٣١ خلوة وجامعان وستمئة دكان و ١٠٣٩٣ بيتاً

وقضاء جزين يشتمل على ١٤٩ قرية منها ٦١ قرية تتعلق ادارتها رأساً بمركز القضاء . ومنهُ اقليم التفاح وفيهِ ٣٤ قرية وجبل الريحان وفيهِ ١٢ قرية . وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٥٤٣٢ وفيهِ ٣٥ مكتباً و ٨ جوامع و ٤٣ كنيسة و ١١٦ دكاناً و ٢٩٩٠ بيتاً

وقضاء الكورة فيهِ ١٠ قرى تتعلق رأساً بمركزهِ و ١٢ قرية في ناحية الكورة الشمالية و١٦ قرية في ناحية الكورة الوسطى و١٢ قرية في ناحية القويطع. وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٥٩٩٧ وفيهِ ١٥ مكتباً و٦ جوامع و ٧٩ كنيسة و ٢٨٠١ بيت و ٨٦ دكاناً

وقضاء زحلة مركزهُ مدينة زحلة ويلحق بها عين المزرعة وعين الدوق وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٤١٤٦ وكنائسهُ ١٤ ومكاتبهُ ١٥ ودكاكينهُ ٤٠٠ وبيوتهُ ٢٠٠٠

واما دير القمر فمخابرتها مع مركز المتصرفية رأساً ويلحق بها سبع قرى وعدد النفوس المكلفة فيها ١٣٥٩ وفيها ٧ مكاتب وجامع و ١٠ كنائس وخلوتان و٢٩٤ دكاناً و ٩٩٣ بيتاً

وقضاء كسروان فيهِ قريتان تتعلقان رأساً بمركزهِ وناحية جبيل وفيها مدينة جبيل و ٧٣ قرية تابعة لها وناحية المنيطرة وفيها ٣٢ قرية وجبيل العليا وفيها ٢٤ قرية وناحية غسطا وفيها ١٩ قرية وناحية الزوق ١٠ قرى وناحية جرود كسروان ١١ قرية وناحية الفتوح ٤٨ قرية

وناحية جونية ٦ قرى . و يتعلق بهذا القضاء رأساً قرية شمسطار الّتي لها مأمور خاص . فعدد القرى ٢٢٦ وعدد النفوس المكلفة فيهِ ١٩٨٤٠ وفيهِ ٣٥ مكتباً و ١١ جامعاً و ١٥٥ كنيسة و ٨٥٠ دكاناً و ١٠٠١٠ بيوت

وقضاء البترون فيهِ سبع نواحٍ وهي ناحية حصرون وتحتوي على ٧ قرى وفيهِ اسكلة البترون و يلحقها ٤٣ قرية وناحية قناة وفيها ١٧ قرية وناحية اهدن ٢٢ قرية وناحية بشرّي ١٠ قرى وناحية الزاوية ٢٤ قرية وناحية تنورين ٢٦ قرية وناحية الهرمل في اقصى لبنان عند منبع العاصي . وعدد النفوس المكلفة فيهِ ١٥٨٨٥ وفيهِ ٤٤ مكتباً و ٥ جوامع و ١٨٣ كنيسة و ٣٦٤ دكاناً . ومجموع قراهُ ١٤٩ قرية و بيوتهِ ٧٨٠٧ بيوت

اما دخل حكومة الجبل فبقدر خرجها وهو يبلغ نحو ٣٧ الفاً و ٥٠٠ ليرة عثمانية توزّع رواتب على المامورين و١٧ الفاً و ٥٠٠ ليرة عثمانية توزّع على العساكر. وكانت رواتب العساكر فيما سلف تاتيهم من الباب العالي اسعافاً للجبل فبطل ذلك الآن وصاروا يقتصدون من رواتب المأمورين و يعطون العساكر فتخلص الباب العالي من دفع الاسعاف و بقي الحال على ما كان عليهِ فلم يزد الدخل ولم ينقص الخرج حسب روابط الجبل القانونية . ومعلوم انهُ لا يصيب الرجل المكلف في لبنان اكثر من ١٥ غرشاً في السنة يدفعها إلى الحكومة . اما ما يدفعونهُ عن العقارات فيكاد لا يذكر . ونعني بالمكلف الذي لا ينقص عمرهُ عن ١٥ سنة ولا يزيد عن سبعين . واما مسلمو لبنان فمعفون من ذلك الرسم

وعسكر الجبل وحكامهُ من اهلهِ ولذا ترى نظامهُ احسن نظام لوفقدِ بحال الاهلين والسكان

اما المحاكم في لبنان ففي كل قضاء محكمة ابتدائية مؤلفة من رئيس وعضوين « قاضيين » وكتبة على قدر الحاجة ينصبهم جميعاً متصرّف الجبل ويعزلهم متى شاء. وهذه المحاكم مأمورة ان تحكم بالدعاوي الحقوقية على ان ما كان منها دون الالفين والخمسمائة قرش فحكمها فيهِ لا يستأنف بل يميز في محكمة التمييز بالاستانة العلية وما كان فوق ذلك اي فوق الالفين و٥٠٠ قرش فحكمها فيهِ يقبل الاستئناف في ديوان الاستئناف الآتي ذكرهُ ويقبل التمييز ايضاً. واما في دعاوي الجزاء فتحكم بالقبائح (والقباحة هي التي تعرف في مصر بالمخالفة) وهي التي لا يتجاوز الحبس لاجلها اسبوعاً واحداً والجزاء النقدي فيه مئة قرش حكماً لا يقبل الاستئناف بل التمييز. وفي دعاوي الجنح يكون حكمها قابلاً للاستئناف والتمييز. وليس لهذه المحاكم ان تنظر في الدعاوي الجنائية بل عليها اتمام تحقيقاتها الاوّلية ورفع اوراقها إلى الهيئة الاتهامية التي سيأتي ذكرها. وهذه التحقيقات يتولاها المستنطق المعروف في مصر بقاضي التحقيق وهو احد اعضاء هذه المحاكم مع وكيل معاون المدعي العمومي وهو باشكاتب احدى هذه المحاكم. اما وظيفة المستنطق فهي. اولاً تحقيق ما يقع في القضاء من الجرائم الجنائيّة ورفع اوراقها بعد اتمام التحقيق إلى الهيئة الاتهاميّة. ثانياً تحقيق ما يحال عليهِ من دعاوى الجنح الّتي قد تكون غامضة فيحققها ويخرج قراراً اما بالمحاكمة او بعدمها على ان قراراتهِ خاضعة لرئيس المحكمة الذي لهُ الحق بان يغير فيها وان

يأمر باعادة التحقيق ثانيةً . اما وكيل معاون المدعي فمأمور باجراء التعقبات العدليَّة في دعاوى الجنايات وباقامة دعاوى الجنح باسم الحقوق العموميَّة في المحاكم وكل حكم تصدرهُ المحكمة في دعاوى الجنح لايعتبر اذا لم يكن وكيل المعاون حاضرًا عند تفهيمهِ

وفي مركز المتصرفية ديوان يسمى ديوان الاستئناف يقسم إلى دائرتين حقوقيَّة وجزائيَّة . وكلٌ منهما يقوم برئيس وستة اعضاء يعينهم المتصرّف ايضًا فدائرة الحقوق تنظر بوجه الاستئناف في ما يرفع اليها من الاحكام القابلة للاستئناف الَّتي تصدر من المحاكم الابتدائيَّة وهي تقوم في ذلك بوظيفة الهيئة الاتهاميَّة في الدعاوي الجنائيَّة أعني ان الدعاوي الجنائيَّة لا تحال على دائرة الجزاء بعد ان تتمَّ تحقيقاتها الاوَّليَّة في القضاء ما لم يدقق فيها اولاً في دائرة الحقوق باعتبار كونها هيئة اتهاميَّة فاذا رأت هذه الهيئة بعد مطالعة الاوراق ان الادلة الَّتي أُتي بها لاثبات ان المظنون مرتكب للجناية المنسوبة اليهِ انما هي ادلة يصح الاعتماد عليها أمرت بسوقهِ إلى دائرة الجزاء ليحاكم فيها وان لم يكن ثمة دليل او كان ولكن غير بالغ حد الكفاء اطلقت سراح المظنون بهِ وقرَّرت انهُ ما من محل لاجراء المحاكمة . واما الهيئات الاتهاميَّة في سائر الولايات العثمانيَّة فليست دوائر الحقوق بل دوائر الجزاء في محكمة اللواء الذي يكون مركز الولاية

اما دائرة الجزاء فتنظر استئنافًا في احكام المحاكم الابتدائيَّة المتعلقة بدعاوى الجنحة وتنظر بداءةً في الدعاوى الجنائيَّة على ان ما تصدرهُ من الاحكام فيها يميز رأسًا ورسمًا بلا طلب بمعنى ان الحكم

في دعاوى الجنايات لايمكن وضعهُ في موضع الاجراء ما لم يميز و يثبت من محكمة التمييز بخلاف سائر الاحكام حقوقيَّة كانت ام جزائيَّة فان تمييزها وعدمهُ منوطان باختيار اصحابها

اما الرسوم التي يضطرُّ المتداعون إلَى تأديتها في محاكم لبنان فهي عبارة عن غرش واحد في المئة يؤدَّى ربعها عند فتح الدعوى وثلاثة ارباعها عند اعطاء الحكم وهذه الرسوم تسمى «خرج اعلام» واخص القوانين المعوَّل عليها في دعاوى الحقوق الكتاب المسمى «مجلة الاحكام العدليَّة» وهو مأخوذ عن الكتب الفقهيَّة الاسلاميَّة ولكنهُ يمتاز عنها باختصارهِ وبجزمهِ في المسائل المفتى بها وبسهولة عبارتهِ فهو من هذه الجهة مضارعٌ للكتب الافرنجيَّة الَّتي بمعناهُ . وقد علق عليهِ الشرَّاح عدة شروح اقتبسوها من الكتب الفقهيَّة وسهلوا بعضها وتركوا البعض الآخر معقدًا

واما في دعاوى الجزاء فالمعوَّل عليهِ في المجازاة «قانون الجزاء الهمايوني» واما «قانون اصول المحاكمات الجزائيَّة» فيبحث فيهِ عن كيفيَّة النظر في دعاوى الجزاء وعن وظائف المستنطقين والمدعين العموميين إلَى غير ذلك وهٰذَا الكتاب مترجم حرفيًّا عن القانون الفرنسوي . وقد صادف القوم و يصادفون في تطبيق المعاملات عليهِ صعوبات جمة . انتهى .

هٰذَا ما عنَّ لنا تدوينهُ في هٰذَا الكتاب والحمد لله اولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا

فهرست

كتاب حسر اللثام

عن

نكبات الشام

وجه

٢ مقدمة

٣ تمهيد في ماضي الشام وحاضرها

٤ موقع الشام وحدودها الطبيعيَّة

٤ اقسام الشام واسماؤها القديمة والحديثة

٥ مساحة بلاد الشام وعدد سكانها

٥ طوائف الشام ومساكنها

٦ المسلمون في الشام وتعدادهم ومحل سكنهم

٧ النصارى والبلاد الَّتي يقيمون فيها وعددهم

٨ اليهود " " " " "

٨ الدروز " " " " "

٩ الطوائف الاخرى " " " "

٩ مناظر الشام الطبيعيَّة وجبالها وانهارها وبحيراتها وغير هذا

١٠ حاصلات الشام وحيواناتها ومعادنها

١١ مصنوعات الشام عَلَى اختلاف انواعها

١١ المعارف والمدارس الاجنبيَّة والوطنيَّة فيها

وجه
١٢ في ذكر اشهر مدارس الشام
١٣ مهاجرة السوريين إلى البلدان الاخرى واسبابها
١٣ في بيان الولايات السوريّة واقسامها
١٤ وصف بعض المدن البحريّة في الشام مثل مرسين واسكندرونة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور ويافا وحيفا وغيرها
١٦ مدن الداخليّة مثل انطاكية وحلب وحمص وحماه ودمشق والقدس ونابلس وغيرها مع مدن لبنان المشهوره وتاريخ كلٍّ منها بالاختصار
٢٢ حكومة الشام قبل مذابح سنة ١٨٦٠ وبيان مقاصد السلاطين العظام فيها واجتهادهم في انصاف الرعيّة
٢٥ ايالات الشام او ولاياتها مع ذكر ما يهم عنها وعن كيفيّة تقسيمها وتنصيب العمال فيها
٢٦ المتسلميات وايضاح امرها
٢٧ حكام الجبال قبل سنة ١٨٦٠ وكيفيّة تعيينهم واهم اعمالهم وذكر بعض مشاهيرهم
٢٨ كيفيّة جمع الاموال الاميريّة
٢٨ في حالة المدن وحكامها وما انتابها من الاختلال وما لحق باهلها من الظلم والاهانة
٢٩ سياسة بعض الولاة وعملهم على توليد العداء بين اصناف الرعيّة لاضعاف الاهالي

وجه

٣٠ في امور الولاة وعسف بعضهم والطرق التي كانوا يستعملونها لاذلال النصارى واضعافهم

٣١ اسباب القلاقل والمذابح وبيان انواع الجنود العثمانية وكيفية سيرها مع الاهالي

٣٣ وجاقات العساكر العثمانية ووصف حالها ونفوذها وكيفية معاملتها للاهالي

٣٤ في فئة المتنورين وشرح حالها وفعالها ونوادر البعض من افرادها

٣٦ انتشار التعصب الديني في البلاد واسبابهُ

٣٧ حالة النصارى في المدن السورية قبل حوادث سنة ١٨٦٠

٣٨ تسخير النصارى واذلالهم وسوء معاملتهم

٤٠ اموال الذميين في تلك الايام وكيفية اختلاسها منهم

٤١ الضرائب الاخرى التي كانت تفرض على النصارى

٤٢ مرارة الحياة وصعوبتها على النصارى في تلك الايام

٤٣ منشور درويش باشا وفيهِ بيان حال الحكومة التركية ورغبتها في اذلال النصارى

٤٥ ارتقاء حال النصارى في ايام ابراهيم باشا المصري

٤٦ تحسين الحال من بعد الاحتلال المصري وصدور الفرمان السلطاني القاضي بالمساواة والعدل مع صورة هذا الفرمان

٤٩ عود الحكام بعد هذا إلى العسف والجور

٥١ في اصل الدروز وتاريخهم بالاختصار وفيهِ تاريخ الحاكم بأمر الله مطولاً

وجه
٦٢ في اصل الموارنة وتاريخهم بالاختصار
٦٣ في حكام لبنان من الموارنة وذكر اشهر عائلاتهم ونوابغ الذين حكموا منهم
٦٥ احوال جبل لبنان وتاريخه إلى سنة ١٨٦٠ ونوع حكومته
٧٠ في ايام ابراهيم باشا والاحتلال الانكليزي الذي تلاها
٧٣ عود الاتراك إلى السعي في جعل جبل لبنان ولاية تركية
٧٤ ذكر الامير بشير وبعض اعيان لبنان
٧٥ سعي اكليروس الموارنة في اكتساب السلطة وهياج الدروز عليهم
٧٦ مساعدة فرنسا لاكليروس الموارنة واشتداد الازمة
٧٧ تداخل القناصل وتعاظم الحال بين الدروز والنصارى
٨٠ اشتداد الهياج واستعداد الطائفتين للقتال
٨١ معركة دير القمر في سنة ١٨٤١ وتداخل الكولونل روز فصل انكلترا واتمام الصلح بين الدروز والنصارى مع بيان عدد القتلى والخسائر
٨٤ عود الدروز الى القتال ومحاصرة دير القمر
٨٧ مخابرة القوم في الصلح وطرد الامير بشير يوسف من دير القمر واهانة الدروز له
٨٩ بيان القتال في سنة ١٨٤١ بين الدروز والنصارى في القرى الاخرى

وجه
٩٢ في ان الحكومة التركيَّة حرَّضت الناس عَلَى القتال واوجبت تداخل القناصل
٩٣ مجمل في اعمال شبلي العريان
٩٥ قتال النصارى والدروز في البقاع وما يليها
٩٧ هجوم الدروز عَلَى زحلة وحكاية موقعتها ونجاح اهل زحلة في رد الاعداء عنهم
٩٩ انتهاء حرب ١٨٤١ الاهليَّة وبيان نتائجها
١٠١ تنصيب عمر باشا واليًا تركيًّا عَلَى لبنان وبيان مقاصد دولته وغاية حكومته
١٠٢ في الطرق ٱلَّتي استعملتها الحكومة التركيَّة لتظهر لاوروبا ان اهل لبنان رضوا عن حكمها
١٠٤ صورة الاوامر ٱلَّتي اصدرتها حكومة الاتراك لاكراه الناس عَلَى الختم في مدحها
١٠٥ في بيان السياسة التركيَّة وغاية الاتراك في البلاد ٱلَّتي يحكمونها
١١٠ قيام الدروز على عمر باشا في سنة ١٨٤٢ ومجاهرتهم بالعصيان وانكسارهم
١١٢ بيان الحرب بين الدروز وعساكر الدولة وهرب شبلي العريان إِلَى دمشق
١١٥ في عزل عمر باشا الوالي التركي وتعيين والٍ من الدروز ووالٍ من النصارى عَلَى جبل لبنان

وجه
١١٦ تنافس الدروز والنصارى بتحريض الاتراك وعود الطائفتين إلى القتال
١١٨ في الحرب الاهلية سنة ١٨٤٥ ووقوع اكثر الخسارة على النصارى
١٢٢ في عود النظام الى جبل لبنان بعد الحروب
١٢٣ الاسباب التي ادت إلى مذابح سنة ١٨٦٠
١٣٣ في حوادث سنة ١٨٦٠
١٣٤ حادثة بيت مري الاولى في سنة ١٨٥٩
١٣٧ استعداد الطائفتين للحرب ومخابرة الحكومة التركية مع رؤساء الدروز في الامر بقصد ابادة النصارى
١٣٩ معركة عين دارا
١٤٠ قيام دروز حوران لنجدة اخوانهم في لبنان بناء على طلب سعيد بك جنبلاط
١٤٢ حاصبيا — وصفها وتاريخها
١٤٥ حاصبيا — مذبحتها مع ذكر التفاصيل
١٥٨ مجموع قتلى حاصبيا وخسائرها
١٥٩ راشيا — وصفها وتاريخها
١٦٠ راشيا — حكاية مذبحتها بالتفصيل
١٦٩ دير القمر — طرف من تاريخها وتفصيل مذبحتها الهائلة ونتائجها المكربة

وجه
١٨٩ مذابح المتن والساحل واشتراك عساكر الاتراك فيها تحت قيادة خورشيد باشا
١٩٩ في ما اصاب صيدا سنة ١٨٦٠ وقيام المسلمين والمتاولة لمساعدة الدروز
٢٠٧ وصول الاساطيل الاوربيّة إلى بيروت
٢٠٨ في مذابح القرى المحيطة بصيدا
٢١٠ في واقعة زحلة ومذبحتها
٢١٦ في الذي اصاب بيروت وضواحيها عام ١٨٦٠
٢٢٠ في ان سعي القناصل بابطال هذه المجازر لم يفد شيئاً
٢٢٢ في مذبحة دمشق وفظائعها المنكرة وبيان اسبابها وعلاقة الوالي احمد باشا بها ومجاهدة القناصل والامير عبد القادر في حفظ الامن وحدوث المذبحة ونتائجها الفظيعة
٢٣٥ بيان عدد القتلى والخسائر في مذابح سنة ١٨٦٠
٢٣٨ في الذي تمّ بعد هذه المذابح . تحرك اوروبا وعقد المؤتمر في باريز وبعض قراراته
٢٤٠ في سياسة الاتراك بعد هذه المذابح وبيان ان الذي حصل كان باغراضهم
٢٤٢ قرار الامم الاوربيّة وقيامها لطلب العدالة وبيان الطرق التي عولت على استعمالها
٢٤٤ فؤاد باشا ومهمتهُ وسياستهُ في البلاد بعد هذه الحوادث وتلاعبهُ بالعدالة وبيان اساليب غدرهِ ومكرهِ بالتفصيل

وجه
٢٥٢ احتلال الجيش الفرنساوي وخلاصة اعماله في بلاد الشام وخروجه
٢٥٥ مؤتمر بيروت ووقائعهُ وقراراتهُ
٢٥٧ فوز فؤاد باشا بنزع السلطة من يد المؤتمر واحالتها على الباب العالي
٢٥٨ خلاص القاتلين من الدروز من نتيجة ما فعلتهُ ايديهم
٢٦٠ اقرار الدول على نظام لبنان الحالي
٢٦١ ترجمة نظام جبل لبنان
٢٧٠ بعض ايضاحات عن جبل لبنان وتعداد اهلهِ واقضيتهِ ومحاكمهِ وكيفيَّة تنصيب العمال فيهِ وغير هٰذا ممَّا تهمُّ معرفتهِ